

سيمولوجيا الجسد في الشعر العراقي الحديث : حسين مردان انموذجا

الأستاذ المساعد الدكتور حامد مردان شروان
قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة البصرة

المستخلص

تتجلى فلسفة الجسد الحدائثية عبر وضع الجسد في سياقه الثقافي والحضاري الذي أنتجه فضاء ما بعد الحدائثية وأفقها المعرفي الواسع الذي يسعى الى خلخلة الأسس الفلسفية العقلانية عبر التشكيك في أسسها المعرفية ومقولاتها العقلانية الراسخة ، ولعل من أبرز هذه الأسس المعرفية وضع الجسد في مرتبة هامشية وسلبية ومدنية ، فهو موضع الخطيئة ، ومنبع الغرائز واللذات والشهوات لأنه كينونة بايولوجية وحسية فقط ، بينما أعلنت من شأن العقل وجعلته في منزلة ثقافية رفيعة ، لأنه مصدر الحكمة والإلهام والتفكير ، لذلك حاولت فلسفة الجسد محاورة هذه التصورات العقلانية وطرح منظورها المعرفي المغاير المستند الى تصورات ما بعد الحدائثية .

الكلمات المفتاحية: تمثلات الجسد ، الهيمنة الثقافية ، تسليع الجسد ، الكبت ، الهوية ، الشبق الجنسي.

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٧/١٨

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٦/٠٦

The Semiotics of the Body in Modern Iraqi Poetry: A Case Study of Hussein Mardan

Asst. Prof. Dr. Hamid Mardan Sharwan

Department of Arabic Language / College of Arts / University of Basrah

Abstract

The modern philosophy of the body emerges from placing the body within the cultural and civilizational context shaped by postmodernism and its expansive epistemological framework. This framework seeks to destabilize the foundations of rational philosophical thought by critically examining its principles and established categories. A key aspect of this critique is the relegation of the body to a marginal, negative, and inferior status, often viewed as a site of sin and the source of instincts, pleasures, and desires, reducing it to a mere biological and sensory entity. In contrast, the intellect is exalted to a higher cultural status, perceived as the source of wisdom, inspiration, and thought. Consequently, the philosophy of the body aims to engage with these rational perceptions and offer an alternative epistemological perspective rooted in postmodern theories. This approach challenges traditional views of the body, advocating for a more nuanced understanding of its significance and complexity within human experience and identity.

Keywords: body representations, cultural domination, commodification of the body, suppression, identity, sexual eroticism.

Received: 06/06/2024

Accepted: 18/07/2024

المقدمة

يتجلى الجسد عبر أنساق اجتماعية وثقافية فاعلة تظهر التمثل الأبهى للهوية الانسانية وتفاعلها مع الوجود الخارجي عبر علاقة جدلية متنامية تنفتح على فضاءات تأويلية واسعة ، وتتخطى حواجز معرفية راسخة وضعت الجسد في مسارات خانقة قولبت كينونته وهمشت حضوره ، واجهضت تفاعله الجدلي مع العالم الخارجي بوصفه أداة فاعلة لادراك الوجود الخارجي ، وعلامة ثقافية تتجلى فيها التعبيرات الوجدانية والانساق الثقافية ، مثل الوشم على الجلد ، والرقص والتنحيف ، وعلم تحديد النسل ، الى الممارسات الثقافية التي يتجلى فيها الجسد مادة حيوية وموضوعا ثريا للمتخيلات الثقافية ؛ فالجسد يظل معينا لأغلب التمثلات والتصورات التي تكونها الانساق الاجتماعية والثقافية وترسلها عبر ثيمات وإشارات ومتخيلات يمكن رصدها وكشف شفراتها وتأويلها وتحديد مساراتها عبر حزمة من القراءات النقدية الفاحصة التي تحفر في طبقات النصوص الابداعية.

ويعدُّ الجسد منتجا دلاليا يحوم في الفضاء الثقافي والاجتماعي ، ويعمل بكل نشاط على دمج الانسان ضمن هذين الاطارين ، كما يفتح الجسد على محور علاقة الانسان بالواقع الخارجي من خلال الزمان والمكان ، فالكائن الانساني لا يتمثل في الوجود إلا عبر جسده .

إن الجسد يكون مترجما صادقا للتصورات الفكرية التي ينتجها الانسان ، والجسد لم يعد عنصرا ماديا صامتا وجامدا تنضب فيه الحياة ، بل أصبح وعيا حيا ناطقا يضح بالصخب والحيوية والنشاط ، ويكون حاملا للتصورات الفكرية وناطقا حيا لمقولاتها ، وتقوم وظيفته على تمثيل هذه التصورات وتحويلها الى سلوك يومي ممارس يوحى بالديمومة والحيوية ، لذلك خرج الجسد من سجن التصورات الفلسفية القديمة وانطلق في فضاء حدائي مغاير يرفض الانصياع للطروحات القديمة المؤسسية لكيونة الجسد والقامعة لحضوره . ويبقى السؤال ماثلا ، هل يكون الجسد مترجما أميناً لأفكار الانسان وتصوراته الفكرية الخلاقة ؟.

مهاده نظري :

لقد انفتح الفضاء الفلسفي على المقاربة الحدائية للجسد ، وتعد اشكالية العقل والجسد من أهم المشاريع الكبرى في تاريخ الفكر الانساني ومشواره الطويل ، ولعل من أبرز ملامح هذه الاشكالية هو التوصيف الثنائي للانسان ، فالصورة الأولى هي صورة فكرية مجردة تتعامل مع الانسان بوصفه كائنا عقليا مفكرا قادرا على فهم ذاته ومحيطه ، أما الصورة الثانية فهي صورة الكائن العضوي المكون من الخواص الفيزيائية الجسدية بالمعنى الواسع ، وظلت هاتان الصورتان المتوازيتان حاضرتان في أغلب طروحات الفلاسفة والمفكرين منذ بداية الفلسفة اليونانية . (١)

وتباين ثنائية الروح والجسد بين التصورات السردية المتخيلة والتصورات الفلسفية ، فالمتخيل السردية المتمثل في الايذاء والأوديسة يختزل المسافة الفاصلة بين الروح والجسد ويلغما ليشكل بنية ذاتية متجانسة ، فاذا كان الجسد المادي إشارة زمنية على الوجود البشري فإنه ينسلخ عن ماديته احيانا ليرتفع الى مصاف الآلهة كما هو الحال عند الابطال الذين يرتقون

الى هذه المنزلة مما يؤدي الى التوافق الكلي بين الروح والجسد في وحدة وجودية واحدة يتماهى فيها الباطن والظاهر ، والخارج والداخل.

اما التصور الفلسفي فانه يفكك التجانس الثنائي المتخيل ويفصل بشكل حاسم بين الروح والجسد ويعدهما كيانين متناقضين ، لأن هدف الفلسفة من لحظة التأسيس هو البحث عن الطهرانية المثالية التي لا يمكن تجسدها إلا بانفصال الروح عن الجسد كي تتسامى في ملكوت الفضاء الواسع ، لان الجسد يكون كيانا ماديا يعيق الروح عن الارتقاء ويكبل حركتها ويكون مصيره الانحلال والفساد ، وظلت هذه الثنائية المتناقضة حاضرة في الفلسفة الافلاطونية وفي طروحات العديد من الفلاسفة حتى وصلت الى فلسفة ديكارت . (٢)

من هنا يمكن القول ان لحظة التطهير الذاتي كانت ايذانا بتدشين ثنائية الروح والجسد في الفكر الفلسفي الغربي ، وقد صنف هذا الفكر الذات الانسانية الى روح مثالية نقية ، وجسد مادي مدنس يقيد جماح الروح ويكبح حركتها ، لذا وجب عليها التخلص منه والانعقاد من سطوته ، وهذه الطهرانية كانت شرارة انطلاق ثنائية الروح والجسد والتعارض القائم بينهما ، روح ابولونية طاهرة ، وجسد ديونيزي مدنس ، فلماذا نظر الفكر الفلسفي الى الجسد كمكون شهواني _ غرائزي يجب التخلص منه من أجل طهرانية الروح وارتقاءها ؟ وهل يستطيع الانسان ان يصل الى مرحلة الطهرانية المثالية الكاملة أم انها ظلت مفهوما فلسفيا مثاليا ومجردا أكثر من كونها مفهوما اجرائيا واقعيا ؟ .

إن التصورات الفلسفية منذ سقراط وافلاطون جعلت الجسد مصدرا للشر ومقبرة للروح وسجنا عقابيا لها بسبب طردها من عالم المثل ، وهو متغير وغرائزي ومدنس ، يتغير حسب طبيعة كل مجتمع ولا يطاله الثبات ، لأنه عرضة للتحويلات التي تطرأ عليه فيظل وجودا ماديا ناقصا ومشوها تتمثل فيه الغرائز والشهوات والرغبات وتتحكم في مساره ، وقد سادت هذه التصورات في الفكر المسيحي الذي كان امتدادا معرفيا للتصورات الافلاطونية التي وضعت الجسد في منظومة معرفية ضيقة أسهمت بشكل فاعل في اقصائه وتهميشه . (٣)

ويتشدد افلاطون في انحيازه الايديولوجي نحو الروح بوصفها جزءا من عالم المثل ، لذلك وجب ازدياء الجسد والتقليل من قيمته ، كي لا يتحول الانسان الى عبد لرغباته الجسدية التي تحدد سلوكه الانساني ، مما يؤدي الى انقياد الروح الى رغبات الجسد والتقيد بها ، وقد تعيقها عن السمو والارتقاء للوصول الى عالم المثل الذي جاءت منه ، والروح ليست هي جوهر الحياة ولكنها مركز التفكير الذي يمتاز به الانسان عن بقية الكائنات الاخرى ، وعن طريق هذا الفكر يصل الانسان الى معرفة الحقيقة التي يسعى في الوصول اليها ، وقد يشكل الجسد عائقا في طريق هذه الغاية الكبرى . (٤)

إن التصور المثالي الذي دشنته افلاطون يسعى الى إدانة الجسد عبر اختزاله بالبعد الغرائزي الذي ينطلق من خلفية اخلاقية مثالية تهدف الى موضعة الجسد ومحاصرته بأسوار الغريزة والمتعة من دون الانفتاح على الامكانيات الهائلة التي يمتلكها الجسد ويحتفظ بها في قرارة ذاته ، فالغريزة تمثل جانبا واحدا من جوانب الجسد ولا يمكن اطلاقها بشكل سافر عليه ، وتحجيم دوره في ذلك التصور الديونيزي الذي يكون مصدرا للذيلة والشر والعنف وعنوانا للانحلال الاخلاقي ، ومنبعا

للعواطف والاهوام والتصورات التي تحجب الحقيقة وتمنعها من الظهور ، وبذلك يكون الجسد عقبة في نظرية المعرفة والنظام الاخلاقي للوصول الى الكمال .

إن المرتكزات الفكرية التي يستند اليها التصور المثالي تعتمد على رؤية فلسفية قائمة على ادراك الحقيقة التي لا يمكن اليها إلا عن طريق النفس التي تسعى الى التأمل المثالي المجرد من اجل ادراكها ويعرقل الجسد غاية النفس في الوصول الى هذه الغاية الأسى ، ولكن السؤال المطروح هل ان الجسد يكون عائقا فعليا امام النفس لادراك الحقيقة ؟ وهل يمكن الوثوق بهذا التصنيف الثنائي المشيد من طبيعتين متناقضتين : نفس مطهرة ، وجسد مدنس ، ولماذا يصير الخطاب الفلسفي على اختزال الجسد في بعده الغرائزي من جهة وربط الغريزة بالخطيئة المدنسة من جهة أخرى ؟ . لذا يمكن القول ان هذه التصورات يمكن تحليلها واعادة تأويلها بشكل مغاير ، فالنفس والجسد يشكلان وحدة ثنائية لا يمكن الفصل بينهما ، ويشكلان الذات الانسانية المتكاملة ، فيكون الجسد روحا وتكون الروح جسدا ، ويتلاشى التناقض المزعوم بينهما ، فلا يمكن لجوهريين متناقضين ان يؤثر أحدهما في الآخر ويكونان مرتبطين في الوقت ذاته !!! .

إن الخصائص البيولوجية للجسد هي التي تنتج الحياة ، فلولا الغرائز التي تم تنحيها لما كان للذات ان تظهر الى الوجود ، وهذه الذات تكون نافذة نطل بها على العالم الخارجي ، فالجسد هو نقطة الالتقاء بين الذات والعالم ، وهذه الذات لا تتمرأى إلا عبر الجسد ، لذلك وجب تحرير الجسد من الانثيالات المثالية التي أسسها الخطاب الفلسفي ، ومحاولة تفجير طاقاته الكامنة التي تم اجهاضها وقمعها في ظل سلطة العقل ، وفي ضوء ذلك تسعى التصورات الحديثة الى تثوير الجسد وتخليصه من شبح الروح الذي يطارده ، لان هذه الروح لا يمكنها ان تكون اطلالة الانسان على عالمه الخارجي ، لانها ذات مجردة ومفارقة للواقع ومنفصلة عنه ، لذا وجب الاهتمام بالجسد وتخليصه من الشوائب المثالية التي لحقت به ، وتسليط الضوء عليه وانهاء تهميشه ووضعه في المكانة المناسبة المستحقة له .

وينطلق (ديكارت) من الثنائية الافلاطونية المثالية في تصنيفه للذات ، فهو ينطلق من العقل الذي يكون مرجعا لكل التصورات والاحكام التي يطلقها الانسان ، وتنقسم الذات - حسب تصوره - الى نفس عاقلة مفكرة واعية وجسد مادي أعى وعاطل عن العمل ، فمن خصائص الجسد الحركة والحرارة والخواص الفيزيائية ، اما خصائص النفس فهي التفكير والتعقل والارادة ، وينشأ الصراع الجدلي بين خصائص النفس وارادتها الحرة المفكرة وخصائص الجسد المادية وغرائزه الشهوانية ، ويكون التفوق عادة للذات المفكرة العاقلة ، فبنية التوازي التي يقيمها ديكارت بين النفس والجسد تجعل من (الأنا) المفكرة الواعية المدركة ماهية منفصلة وقائمة بذاتها ، ويرفض رفضا قاطعا أي نوع من اللاوعي القائم على حدود الجسد، وفي ضوء ذلك التصور يعلي (ديكارت) من شأن النفس المفكرة ويزدري شأن الجسد وقواه العاملة . (٥)

ويعتقد (سبينوزا) ان (ديكارت) قد ابتعد عن الصواب في هذه الاشكالية ، فالتمايز القائم بين النفس والجسد في تصوره ما هو إلا وهم انتجته التصورات المثالية التي دشنها (افلاطون) وسار عليها (ديكارت) ، فالنفس والجسد بنيتان متماثلتان ومتداخلتان ولا يمكن الاقرار بوجود التناقض بينهما ، فالانسان يحصل على المعرفة - حسب تصوره - عن طريق اسلوبين أما بالفكر أو بالامتداد ، ومن ثم فالنفس والجسد ليسا واقعين متباينين ، بل هما وجهتا نظر حول الموضوع ذاته ، لأن الروح

هي فكرة الجسد ، وان الفكر هو وسيلة تمثل الجسد ، ومن ثم يتلاشى الاختلاف والتراتب بينهما ، فالجسد يكون عاجزا ان يدفع الى العقل الى التفكير ، والعقل يكون عاجزا ان يدفع الجسد الى التحرك او فعل اي شيء آخر ، وفي ضوء تصور (سبينوزا) تتماهى النفس مع الجسد ، وتزول الحدود الفارقة بينهما ويتلاشى التراتب الهرمي الذي أنتجته التصورات المثالية وسار على نهجها العديد من المفكرين .

إن رحلة الجسد قد قطعت شوطا معرفيا طويلا في تاريخ الفكر الانساني ، وتحولت الى خطاب معرفي مثل اي خطاب آخر ، ولم يعد الجسد أسيرا للتصورات السابقة وخاضعا لها ، بل أصبح مركزا معرفيا تنطلق منه أفكار مغايرة خلخلت الأسس المعرفية السابقة وضععت أركانها ، وربما تكون تصورات (سبينوزا)

الحجر الأساس في مثل هذه التحولات ، فالتماثل بين النفس والجسد في تصوري كانت شرارة الانطلاق في ميدان دراسة الجسد وتخليصه من الاصفاد المعرفية التي كبلته واجهضت حضوره الفاعل الذي كان محصورا في الوظائف الغرائزية المحدودة ، وفي ضوء الطروحات السابقة يمكن القول ان الجسد يشكل فضاء معرفيا تتماهى فيه الموضوعية مع الذاتية ، ويتداخل فيه الوعي باللاوعي ، وتتمازج فيه الثقافة بالواقع ، وينصهر فيه الحاضر بالغائب ، ويحتضن الموت والحياة ، ان تفتيت الثنائية المثالية القائمة على التمرکز العقلي فتح نوافذ معرفية أسهمت اسهاما فاعلا في تدشين حقبة ما بعد حداثة وضعت الجسد في مركز اهتمامها ، وسلطت الأضواء عليه ووضعت في المكانة التي يستحقها .

إن الفكر الثنائي المثالي قد تم تنحيته بعد أن استنفذ شرطه التاريخي ولم يعد مناسبا لسيرورة التطور الفكري الانساني المتجاوز لكل أطره الفكرية ، فلقد تم صهر المكونات المادية والمثالية في بوتقة واحدة أثمرت أفقا معرفيا مغايرا ينسلخ من جذوره الفكرية السابقة ويدشن عهدا فكريا جديدا فتح المجال لصيرورة من التحولات الثقافية والمعرفية التي أجهضت التصورات السابقة ووضعت التفسيرات المادية في مركز اهتمامها .

ولعل من أبرز الفلاسفة الذين حولوا بوصلة الاتجاه من النفس الى الجسد الفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشه) ، فقد استعاد هذا المفكر سلطة الجسد وزحزح مكانته من الهامش الى المركز ومن الاضمار الى العلن ، ومن الغياب الى الحضور ، وجاء ذلك في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) ، فهو يرى ان هناك بنيتين تكمن داخل الانسان ، فالعقل الصغير الذي نطلق عليه وعيا ما هو الا أداة صغيرة ومتواضعة بيد العقل الكبير الذي هو الجسد ، وهذا العقل الكبير هو الذي يتحكم بالأفكار والاحاسيس ويكون أكثر تسلطا ونفوذا على قدرة الذات ، وما العقل الا جزء صغير من ممتلكات العقل الكبير أو الجسد ذلك المجهول الذي يسكن أعماق الانسان ويتحكم بإرادته الواعية . (٧)

إن هذه الطروحات قلبت الطروحات الفلسفية القديمة رأسا على عقب ، وفسحت المجال واسعا لكل الدراسات التي تطرقت للجسد ووضعت في مركز اهتمامها ليتحول الجسد الى خطاب معرفي شامل أنتج العديد من الممارسات الثقافية والاجتماعية التي حررت الجسد من كيانه البيولوجي القديم ، ومنحته كيانا حضاريا وثقافيا مغايرا ، فلقد تم تحرير الجسد من سجن الروح، بعد ان كان الاعتقاد السابق ان الروح مسجونة في فضاء الجسد . ولقد شكل هذا التحول فتحا معرفيا جديدا زحزح التمرکز المثالي للروح وأقام تمرکز جسديا عوضا عنه ، وبذلك أصبح الهامش مركزا والمركز هامشا .

لقد سعى هذا المفكر الى افتراض نقطة انطلاق مغايرة عما كان مطروحا سابقا ، فالطروحات السابقة كانت تنطلق من الروح وتعد الجسد تابعا لها ، ولذلك خالف هذا الفيلسوف الطروحات السابقة واستبدل نقطة الانطلاق لتكون من الجسد وليس من النفس ، فهو يعتقد ان الايمان بالجسد يكون أشد رسوخا من الايمان بالروح ، لأن الجسد هو الجانب المرئي الذي يمكن ملاحظته ودراسته ، فالحياة هي حياة الجسد

الذي يكون الفكر جسما مصغرا من كينونة الجسد الكلية . (٨)

إن الجسد لم يعد كيانا ماديا غرائزيا ، بل أصبح كيانا مفكرا يكون بديلا عن النفس ، وبذلك انتقل من العنى الى الابصار، ومن المادة الى الروح ، ومن اللاوعي الى الوعي ، فالحياة لا تتجلى إلا عبر الجسد فهو الجانب المرئي الذي يمكن ملاحظته وتوقع ردود افعاله والتحكم بمسارته وسلوكياته ، وبذلك تهاوت الثنائية التراتبية الهرمية التي جعلت الجسد في الهامش وانهارت الحدود الفاصلة بين الروح والجسد .

ويتصدى مشروع الفيلسوف (فريدريك نيتشه) للمشروع الثقافي الغربي القائم على مثالية مفرطة شنت حربا مدمرة على الرغبات والغرائز والاهواء ونفثها من ميدان اشتغالها ، وهمشت حضورها وكينونتها وأسست تصوراتها على مرجعية اخلاقية ومعرفية ، حين جعلت الجسد منبعا للغريزة ومصدرا للضلالة والشر ، لذلك وجب نفيه من دائرة الاهتمام واعلاء شأن النفس ومنحها المكانة المعرفية التي تستحقها حسب التصورات المثالية ، وبسبب ذلك أعلن هذا المفكر الحرب على المشروع الغربي المتأمر على الجسد ، والسالب لحضوره ، والقامع لكينونته ، فأعاد للجسد هيئته ونسف الهرمية المركزية المثالية التي وضعت النفس في قمة الهرم ، وخلخل أسسها المعرفية ونقل البحث الفلسفي في اشكالية الروح والجسد من الأبعاد المثالية المجردة الى الواقع العيني الملموس الذي يربط الوجود الانساني بهذه الاشكالية بعد ان كان تصورا مثاليا مجردا منفصلا عن واقعه .

ولعل من أبرز القضايا التي نسفها هذا المفكر هو ما طرحته الفلسفة الغربية عن الانسان بوصفه كائنا عاقلا مفكرا قادرا على التحكم برغباته ونزواته وغرائزه ، وظلت هذه التصورات حاضرة في كل النتاج الفلسفي وهيمنت عليه هيمنة مطلقة ، ولكن (نيتشه) يدحض هذه التصورات ، ويرى ان الغريزة وليس الفكر هي ماهية الانسان ، وان هذا الفكر ما هو إلا اللغة الرمزية للجسد ، وبذلك تم تحويل الوعي من العقل ليصبح انفعالا ونتاجا يحدث في البعد الغريزي للانسان المنطلق من الجسد، وعلى الرغم من ان هذه الغرائز لم تكن مدركة في أصلها فإنها تحاول اسقاط منظورها المحدد على الواقع ، وبذلك أصبح الجسد هو المحرك الفعلي للانسان ، وما الفكر إلا صورة رمزية لذلك الجسد ، ولا شيء يعطينا حقيقته إلا عالم الغرائز والشهوات ، والفكر يشكل العلاقة المتبادلة بين هذه الغرائز ، ومن وراء هذه الغرائز يتجلى كوحدة شاملة لذلك التعدد والاختلاف ، وبذلك أرسى هذا المفكر تحولا معرفيا في طريقة المنهج الفلسفي حين قدم الحياة على المعرفة ، فوظيفة الانسان هي كيف يحيا وليس كيف يتعلم ويعرف ، والحياة لا تتمثل إلا عبر الجسد الذي يكون تجليا من تجلياتها ، وعنصرا حيا من عناصرها . (٩)

وفي ظل هذا التصور الفلسفي المغاير تم تدشين حقبة معرفية أسهمت بشكل فاعل في بلورة منظومة فكرية جديدة تتباين عن المنظومة الفكرية التقليدية ، وهذه المنظومة تسعى الى موضعة الانسان في مكانه الطبيعي المناسب ، فهو كائن حي بالدرجة الاولى ، وهذه الحياة لا تتجلى إلا عبر الجسد ، وبذلك تم تحويل البوصلة الفكرية التي تقارب الانسان ، من كونه

كأنا عاقلا ومتعلما ومفكرا الى كونه جسدا حيا شهوانيا تتحكم به الغريزة وتسيره في كل اتجاه ، وما الفكر إلا اكدوبة كبرى نسجتها الفلسفة الغربية عبر تاريخها الطويل ، فهو كائن يحيا بالجسد وليس بالفكر ، وتكمن داخل هذا الجسد كل الرغبات والصراعات والاهواء ، وتتصارع عمليات الهدم والبناء ، والموت والحياة ، والرغبة والانطفاء ، والحضور والغياب ، فضلا عن كونه كينونة لها وجودها الحاضر المستقل وقابلة للتمظهر والتحديد مما يؤدي الى وصفها ودراستها وتحديد مكوناتها الاساسية ، وربما يكون التحكم الغرائزي في الجسد هو الذي مهد الطريق لفرويد في ارساء أسس مدرسة التحليل النفسي واكمال المشروع الفلسفي للفيلسوف (نيتشه) .

إن الغريزة البشرية التي تم تنحيها واهمالها في الطروحات الفكرية السابقة تم ادخالها بشكل فاعل في الطروحات الفلسفية الحديثة ، لذا يجب مواجهة الواقع وليس الهروب منه ، فالتعامل مع الغرائز يكون امرا واقعا لا يمكن انكاره وتجاهله ، لان سلوكيات الانسان المجهولة لا يمكن تفسيرها تفسيراً موضوعياً إلا بالرجوع الى تأثير هذه الغرائز على تفكير الانسان ، من هنا وجب التعامل مع هذه الغرائز ودراستها ، لأنها تسهم اسهاماً فاعلاً في بناء الانسان ، ولكن ذلك لا يعني ترك هذه الغرائز تعمل بشكل فوضوي وعبثي كما يتصور البعض ، وانما يجب استغلال هذه الغرائز واستثمارها في بناء الانسان الأمثل الذي يكون متمكناً من كبح نزواته والتحكم بها ووضعها في المكان المناسب . (١٠)

إن النزوات والغرائز لا يمكن شطبها ومحوها تماماً من التفكير الانساني ، بل يمكن بقائها واستثمارها عبر تحويلها الى نماذج مفيدة تنفع في بناء الانسان الواعي القادر على التحكم الارادي بنزواته وتسييرها من دون ان تتحكم به ، فالقهر والقمع والكبت لهذه الغرائز ليس هدفاً معلناً ، وإنما يكون وسيلة للوصول الى الانسان المثالي الذي يسمو بذاته فوق الشهوات ، وقدرته الفائقة على تحجيم دورها ، وقد تكون هذه التصورات مقنعة الى حد ما ، ولكنها تعود بنا الى المربع الأول ، لأنها تهدف الى زحزحة سلطة لإقامة سلطة أخرى مكانها ، فالطروحات المثالية جعلت الفكر متحكماً ومتسلطاً على الجسد المسكون بشهواته ورغباته ، وانتقلت هذه السلطة من سلطة الفكر الى سلطة الإرادة ، لذلك يمكن القول ان سلطة الإرادة تتماثل مع سلطة الفكر الواعي القادر على تشذيب الغرائز وتنظيمها ، ويكمن الفرق في هذه التصورات في المسميات ولكن الممارسة تظل واحدة من دون أي تغيير وهي اخضاع الجسد لسلطة قاهرة متحكمة ومهيمنة ، تهدف الى اخماد جذوته وتسكين فورته وتحديد ماهيته ، ويظل الجسد يزرع تحت هيمنتها وسطوتها ، ويكون أسيراً لأوامرها التي تسعى لتدجينه وتشذيبه وترويض رغباته الشهوانية الجامحة ، لكي يكون الجسد مقبولاً ومنتظماً داخل البنية الاجتماعية التي ينتمي اليها ، ويكون محكوماً بالنسق الثقافي الذي تنتجه هذه البنية .

ويرصد (ميشيل فوكو) التحولات السلطوية المهيمنة على الجسد ، فيرى ان الحضارة الانسانية المنبثقة من المجتمع تشتغل على ترويض الجسد وتطويعه عبر تكنولوجيا السلطة المبنوثة في المؤسسات ، لأن الجسد لا يغدو قوة نافعة ومفيدة إلا إذا وقع بين كماشتين ، فهو يجب ان يكون جسداً نافعا ومنتجا وأسيراً ومستعبداً في الوقت ذاته ، ويتحصل على الاستعباد بواسطة وسائل القمع الايديولوجية التي تنتجها المؤسسات ، لذلك يمكن انتاج معرفة بالجسد تحدد كيفية اشتغاله

والهيمنة عليه وهذه المعرفة يمكن ان نطلق عليها التكنولوجيا السياسية للجسد ، ويكون هدفها هو انتاج الجسد الطيع الذي يخدم هيمنة السلطة ويضمن استمرار هيمنتها وهيبته. ^(١١)

ان (فوكو) يحدد تحولات السلطة الاولى وسلطة المعرفة العقلانية المثالية التي أخضعت الجسد لهيمنتها ، وحددت حركته وكبحت فورته ، وقيدت نزواته ، وكشف سلطة المؤسسة الاجتماعية المهيمنة التي حاولت تدجين الجسد عبر مجموعة من المؤسسات منها الأسرة ، والمدرسة ، والمشفى ، والسجن ، وغيرها من المؤسسات التي تحاول ترويض الجسد ودفعه باتجاه سلوكي محدد من أجل الهيمنة عليه ، لذلك تحول الجسد من هيمنة سلطة العقل الى هيمنة سلطة المؤسسة فسلطة العقل هي سلطة مثالية تقمع حضوره وتحجب وجوده وتهيمن على سلوكياته ، وسلطة اجتماعية أخرى تسعى الى تدجينه ودمجه في منظومة ثقافية وحضارية معدة له مسبقا ، ويظل الجسد يتحرك بين هاتين السلطتين ويخضع لهما خضوعا تاما ، ويتم معاملته كبنية هامشية تدور حول سلطة المركز ، لذلك وجب على الجسد التحرر من جميع السلطات المفروضة عليه ، وهي تسعى الى تسخيره وتنميته وزجه في مسارات محددة تكون مرسومة مسبقا ، وتحكمها أهداف سياسية واجتماعية واقتصادية تسعى الى استثمار الجسد وحصره في الجانب الانتاجي الذي يصل أحيانا الى مرحلة تسليع الجسد .

ويتحول الجسد في الفلسفة الظاهرانية الى نقطة التمثيل بين الذات والعالم الخارجي ، فالجسد يكون نقطة التقاء الذات مع العالم ، ولولا الجسد لما تمكنا من نقل مشاعرنا وانفعالنا وأحاسيسنا عبر أجزائه المتباينة ، ولولا الجسد لأصبحت الذات عالما معنويا مجردا تسكنه الاشباح ، وبذلك يكون مرآة الذات للاطلاع على الواقع الخارجي بتحولاته كافة. ^(١٢)

ولقد أحدثت الظاهرانية تحولا معرفيا في مقاربتها للجسد حين دعت الى العودة الى الاشياء ذاتها وادراكها بصورة مباشرة ، ومن ابرزها الجسد بوصفه تجربة حضور الانسان الى العالم ، ولذلك يرى (ميرلو بونتي) ان الجسد هو الذي يملك قصديته الخاصة التي يمتاز بها عن الآخرين ، فكل ذات تشكل جسدها الخاص ، وان هذه الذات لا يمكن تجليها إلا عبر الجسد ، وفي ضوء ذلك فان علاقة الجسد بالعالم لم تكن علاقة معرفة وانما علاقة تواطؤ ، فالذات لا تكون أمام جسدها وإنما تتموضع داخل إطار ذلك الجسد ، ويكون هذا الجسد أداة لنقل الذات الى العالم ، لذلك يغدو الجسد عند (ميرلو بونتي) معبرا ويحمل دلالة اشارية مهمة ، لأنه هو الذي يسقط على الواقع معاني الاشياء ، وهو الذي يجعلها تتمثل بالوجود ، وتكون تحت مرأى ابصارنا ، والجسد يكون وسيلتنا المعرفية الاساسية لامتلاك العالم ، فهو أثر دال في هذا العالم ، فهو وراء ومرئي ، مؤثر ومتأثر. ^(١٣)

وضمن تصورات الفلسفة الظاهرانية أصبح الجسد وسيلة الذات لامتلاك العالم ، ولفهمه وادراكه ادراكا مباشرا ، والجسد يمتلك قصديته الواضحة والصريحة والبارزة ، لذلك يذهب (ميرلو بونتي) الى وصفه بالرائي والمرئي والقابل للتمظهر والتموضع ، وهو وسيلة الذات لامتلاك العالم ، لأن كل ذات لها جسدها الخاص الذي تتباين وتتفرد به عن الآخرين ويكون قابلا للمشاهدة والتمحيص والدراسة بوصفه أثرا مرئيا ومشخصا ، وبذلك تحول الجسد من ذات الى موضوع. ^(١٤)

ان التحول المعرفي في اشكالية الجسد تكمن في التحول المعرفي للجسد من الذات الى الموضوع ، فالكائن الانساني الذي يتمظهر عبر الجسد يمثل الغاية النهائية لنظرية المعرفة المادية التي حلت مكان التصورات الفلسفية السابقة ، وهدف هذه النظرية هو اختزال الانسان بالبعد المادي الذي يتجلى عبر الجسد ومكوناته الظاهرة التي يمكن تشخيصها وفحصها تمهيدا

للهيمنة على الجسد والسيطرة عليه وتوجيهه نحو مسارات معرفية معدة له سلفا، ويصبح الجسد مقبولا اجتماعيا وحضاريا طالما ظل مسيطرا ومهيمننا عليه وعلى سلوكياته وأفعاله ويتحرك ضمن الإطار المؤسساتي الموضوع له . وفي ضوء ذلك يمكن القول ان التصورات الفلسفية الحديثة تسعى الى اختزال الانسان في الحيز الفيزيائي المحدود وتحجيم دوره في هذا الفضاء المادي الظاهر لكي يتم التحكم به والهيمنة عليه وتوجيهه توجها ايدولوجيا منظما ، ويبقى السؤال مشرعا في امكانية التحكم المطلق بالجسد ، فهل يمكن التحكم به فعلا ؟ وهل يمكن اختزال الكائن الانساني في بعده المادي فقط ؟ ويمكن القول ان الانسان يظل بعدا معرفيا عصيا على الاختزال والتقولب والتفسير والتموضع ضمن إطار معرفي خانق يحجم قدراته الفكرية الهائلة ويحصرها في الاطار المادي الجامد من أجل التحكم به وترويضه وتدجينه ، لقد تم شطب الجانب الروحي من الانسان ومحوه من الوجود بوصفه عنصرا مجردا غير قابل للتمثل والتموضع ولا يمكن التحكم به وتسييره نحو غايات ايدولوجية مبرمجة ، فالتفسير المادي يظل تفسيرا محدودا ومختزلا مهما حقق من نجاحات ميدانية ظاهرة ، لأنه يختزل الكيان الانساني في بعد واحد من أبعاده اللامتناهية .

ويرفض (ليفيناس) في كتابه (الزمن والآخر) الملكية الجسدية وقصديتها الخاصة بوصف الفرد هو جسده الخاص ، فيرى ان الكائن الانساني ليس جسده الخاص طالما يكون مرتبطا بالآخر ، ويتجلى ذلك عبر الغراميات والمداعبات والممارسات الجسدية ، فحين يتعري الجسد ويعرض نفسه في ممارسة المداعبة يتخلى عن وضعية الكائن المستقل الكائن بذاته ، ويكتشف وجوده من خلال الآخر ، وليس عبر علاقته بالوجود الخارجي ، فالمرء لا يدرك جسده إلا عبر نداء الآخر ، وبذلك تم تحويل ادراك الجسد من علاقته بالعالم الخارجي - كما ترى الظاهرية - الى علاقته بالجسد الآخر ، فتنهار علاقة التواطؤ الكائنة بين الجسد والعالم الخارجي ، ويتم استبدالها بالعلاقة بين الذات والآخر . (١٥)

ان هذا التصور يكشف عن تحول معرفي جديد في السيرورة المعرفية التي قطعها الجسد عبر انتقالاته التاريخية والمعرفية، فالجسد لم يعد وسيلتنا لاكتشاف العالم ، بل أصبح وسيلتنا لاكتشاف الذات ، ولم تعد علاقته مرتبطة بالعالم الخارجي ارتباطا وثيقا ، فلحظة اكتشاف الذات تتجلى عبر الآخر حين يتمرأى الجسد عبر الآخر ليفصح عن كينونته ، فالصورة التي يشكلها الجسد تكون انعكاسا لثقافة العصر وليست انعكاسا لرغباته الذاتية ، أي الصورة التي تنتجها الثقافة وليست الصورة التي تنتجها الذات ، وتتحدد هذه الثقافة عبر مجموعة من التصورات التي ينتجها الآخر ويرسم ملامحها وبشكل أنساقها ، فحين يتأمل المرء جسده يكتشف ان هذا الجسد ما هو إلا صورة ثقافية تشترك فيها أجساد أخرى تنتمي الى الأفق الثقافي ذاته، وتشترك معه في انتاج متخيلات تقبع في إطار القيم والاعراف الاجتماعية السائدة ، وبذلك يتحول الجسد من علامة مادية بايولوجية الى علامة ثقافية وحضارية فاعلة تسهم في تسويقه ومنحه أبعادا إشارية مهمة يمكن قراءة أنساقها وتحليل شفراتها وتفسير مدلولاتها ، فالجسد هو الرمز الذي تحضر عليه الثقافة بصمتها وعلامتها المائزة .

وترفض سوسيلوجيا الجسد التصورات الاختزالية التي تعين الجسد في بعده المادي ، وتؤكد قصور هذه التصورات في ادراكها لظاهرة الجسد ، وترى ان الكثير من الظواهر ماهي إلا محصلة لمسارات اجتماعية ، وان كل حدث هو فعل اجتماعي ويكون الجسد ثمرة من ثمرات التكوين الاجتماعي - الثقافي ، وبذلك يكون الجسد تخيلا ومجموعة من التمثلات الفكرية ،

وهو صورة غير واعية تتحضر ثم تتلاشى ليعاد بناؤها عبر سيرورة تاريخ الذات ، وبذا يكون الجسد تابعا للثقافة ونصا تكتبه الثقافة .
(١٦)

ويسهم الجسد اسهاما واضحا في انسجام المجتمع وتناغمه والحفاظ على اتزانه ، فترى (ماري دوغلاس) ان الجسد يكون تمثلا مجازيا لصورة المجتمع الكلية ، فالكل هو مجموع اجزائه ، والمجتمع مكون من مجموعة من الأفراد التي تنتهي اليه ، لذلك فإن اي خلل او عاهة او اضطراب يصيب الجسد فان ذلك سوف يحيل الى اختلال المجتمع واضطرابه ، فسلامة المجتمع من سلامة الجسد ، ومرض الفرد المؤثر يؤدي الى تأخر المجتمع وتخلفه ، لأن المجتمع يعتمد اعتمادا كلياً على صحة الأفراد في بنائه عبر توظيف أفعالهم وأفكارهم في عملية البناء الاجتماعي . (١٧)

ان حقل اشتغال سوسولوجيا الجسد يكمن في اشكالية الدمج الاجتماعي ، وتوظيف هذا الدمج في بناء المجتمع وتنظيم انساقه الاجتماعية ، وتعمل عملية دمج الجسد داخل الفضاء الاجتماعي على تحويل الجسد الى ظاهرة ثقافية واجتماعية وحضارية فاعلة ، أي يتحول الجسد من بنية مادية الى علامة رمزية قابلة للتمثل والتخييل والتصور ، وتتموضع هذه العلامة ضمن الفضاء الثقافي الاجتماعي الذي يمنحها بعدا تأويليا فاعلا يمكن رصده وتحليله وتفكيك شفراته الثقافية ، فالجسد يتم تشييده اجتماعيا ويظل محصورا داخل الاطار الاجتماعي الذي يسعى الى ترويضه وتدجينه عبر سلسلة متتالية من سلوكيات المؤسسات الثقافية التي تمارس عليه وتحوله من كائن فوضوي الى كائن متحضر ومنظم يخضع لمتطلبات السلطة الاجتماعية وفعالها القهري وعملها الايديولوجي الممنهج الذي يمنحه وجودا حضاريا وثقافيا لافتا .

إن الرؤية الحديثة للجسد تستند الى التمثل الخاص والمميز للجسد ، لذا يرى (دوركهايم) ان البناء الاجتماعي يكون قائما على استحضر الفردنة التي تميز شخصا عن شخص آخر ، ولا تتجلى هذه الفردنة إلا عبر الجسد الذي يقوم بدور رئيسي في استحضرها وتشبيدها ونقلها من الغياب الى الحضور ، لذلك يجب خلخلة التصورات القديمة التي قامت بعزل الانسان عن جسده ، بوصفه بنية هامشية لا تحظى بالمزيد من الأهمية ، وبناء على ذلك حاولت التصورات الحديثة زعزعة المفاهيم السائدة، وتدشين منظومة فكرية مغايرة يكون الجسد في مركز اهتمامها وتفكيرها ، وفي ضوء ذلك يظل الجسد رؤية متغيرة تبعا لطبيعة كل مجتمع ، فالصور التي تعرفه هي التي تفسر طبيعته وتموضعه في المشهد الاجتماعي العام . (١٨)

إن سوسولوجيا الجسد تنفصل عن الخلفية البايولوجية للجسد ، وتنبأ عن الأبعاد المادية التي يمتلكها الجسد وهي تشكل حضوره المعلن ، وفي ضوء التصور الاجتماعي لم يعد الجسد بناء بايولوجيا مكونا من مجموعة من الأعضاء ، بل هو فضاء رمزي يسهم في ضم الأشكال الثقافية داخل إطار بنيته الواسعة ، وبذلك ينتقل الجسد من المرجعية المادية الى المرجعية الثقافية ، ويكون خطابا معرفيا دالا ينتج انساقا سيمبولوجية يمكن رصدها وتحليلها وتأويلها ضمن إطارها الثقافي الذي تسهم في تشييده ، فالجسد يولد بايولوجيا ولكنه يتشكل اجتماعيا ، وبين لحظة الولادة ولحظة التشكل تتحقق سيرورة الجسد ضمن الفضاء الاجتماعي ويتحول الجسد الى خطاب ابستمولوجي مكتنز وعلامة ثقافية تتشكل عبر سلسلة من التمثلات والتجسيدات التي تختزنها الذاكرة الاجتماعية ، فالنسق الاجتماعي عبر سلطاته المختلفة يهدف الى ترويض الجسد

وتدجينه ووضعه في قالب اجتماعي يتناغم مع طبيعة ذلك المجتمع وأنساقه الثقافية ، ليكتسب الجسد الكثير من الأمور التي تفرض عليه وتحوله من كائن بايولوجي الى نسق ثقافي .

وتسعى السلطات الثقافية الى تدجين الجسد وقولبته وجعله ينصاع للهيمنة الاجتماعية الموحدة التي تحكم سياسة المجتمعات المنسجمة والمتناغمة والمؤدلجة بإطر ثقافية خاصة ممنهجة سلفا ، ولولا هذا التدجين لتفكك المجتمع وأصبحت الفردانية الجسدية هي التي تتسيد المشهد الاجتماعي وتتحكم بمساراته وتحولاته ، فهي تسعى الى إعادة انتاج الجسد المتناغم مع ايدولوجيتها المضمره ، وتضبط حركة ايقاع غرائزه المتوقدة لتقوم بإعادة انتاجها وتنظيمها وفق منظومة حضارية تشيدها المؤسسات الاجتماعية التي تسعى الى تحويل الجسد من الفوضى الى النظام ومن الذاتية الى الاجتماعية ، وبذلك يتحول الجسد الى أيقونة يقوم المجتمع بتشكيلها ونحتها وصيها في قالب ثقافي مؤدلج يرمي الى تحويل الجسد الى علامة ثقافية منجزة عبر الخطاب الذي تنتجه المؤسسات وتكنولوجياها المضمره التي تهدف الى انتاج الجسد الطيع لهذه الهيمنة والسياسات في فلكتها والضمان لاستمرار قوتها ونفوذها الطاعي .

وفي ضوء ذلك يمكن القول ان سيرورة الجسد واقعة بين كماشتين ، تمثل الأولى سلطة المعرفة العقلانية المثالية التي همشت الجسد وأخضعته لسلطة العقل وحجبت ظهوره وقيدت حركته ، اما السلطة الثانية فهي سلطة المؤسسة الاجتماعية المهيمنة التي حاولت تدجين الجسد عبر مجموعة من المؤسسات الثقافية ، وظل الجسد يتحرك بين هاتين السلطتين ويخضع لهما خضوعا تاما ويتشكل من خلالهما ، وتحفر هاتان السلطتان بصماتها على الجسد ليكون نسخة مقمومة ومشوهة يتم انتاجها في أروقة السلطتين ، وفي ضوء ذلك حان الوقت لتثوير الجسد وتحريره من الهيمنة الجائمة عليه ، ومنحه حرية الذات وفعل التشكل لينتج هويته الخاصة به ، الهوية التي تم تشويهها وسلبها منه عبر خضوعه المرير لتأثير السلطة عليه ، لذلك وجب تحرير الجسد من هيمنة السلطات ومنحه الحرية ليعلن عن وجوده المائز ، ويحتفظ بكيانه الخاص المتمرد على فعل الهيمنة القهري الذي يمارس عليه ، ومن هنا يظل الجسد متأرجحا بين إعلان الذات والصراع مع السلطات ، بين التمرد والانصياع ، بين الحضور والاستلاب ، وسوف تميل كفة التآرجح باتجاه الاستقلال التام وخروجه من أسر السلطات التي أجهضت كيانه وحجبت نشاطه وهمشت دوره .

وقد ازدادت الدراسات التي وضعت الجسد في مركز اهتمامها ، وحررتته من هيمنة السلطات التي تقيد حركته ، وكبنت نشاطه، ومنعته من الظهور والتجسد ، فالتصورات الحديثة للجسد تكون قائمة على التمثل الخاص للجسد داخل إطار البنية الاجتماعية ، ويكون هذا التمثل هو نقطة انطلاق هذه الدراسات ومحور اهتمامها ، ولم يقتصر الأمر على التمثل الاجتماعي للجسد ، بل ثمة تصورات حديثة مهمة أنتجت فضاء معرفيا مغايرا أسهم في وضع الجسد داخل إطار منظومة مركزية فكرية أعادت للجسد هويته المستلبة التي همشتها التصورات الفكرية الكلاسيكية وأجهضت مشروعه ، ولعل من أبرز محاور دراسات الجسد هي :

١- الفكر الجسد .

٢- سوسولوجيا الجسد .

٣- الجسد بوصفه علامة ثقافية .

تمثلات الجسد :

وسوف يحاول البحث رصد تمثلات الجسد في شعرية الشاعر العراقي حسين مردان بوصفه شاعرا حدائيا أسهم في تشكيل منظومة الحدائث الشعرية في العراق ، وأحدث انعطافة ثقافية جريئة اختلف النقاد والدارسون في وصفها ، وتباينت الطروحات في قراءة منجزه الشعري ، ومرجع ذلك يعود الى المرجعية الأخلاقية المثالية التي مازالت تسكن مخيلة النقاد وهم يعاينون هذا المنجز الشعري المفعم بالتمرد على الانساق الثقافية السائدة ويتنطع لمخاتلتها والتمرد على هيمنتها الثقافية الطاغية ، لذا يحتاج هذا المنجز الى قراءة ثقافية واعية تنسلخ من مرجعيتها الأخلاقية ، وتعاين النص بأفق مفتوح يتموضع داخل فضاء النص ويحاور أنساقه المعلنة والمضمرة ، ويكشف عن مرجعياته الثقافية والفكرية التي أسهمت في انتاجه وتسويقه حتى وصوله الى علامة ثقافية فارقة في المشهد الشعري العراقي الحديث .

ويشكل الجسد علامة مائزة في شعرية حسين مردان ويتجلى ذلك في العديد من نصوصه الابداعية ، فالجسد الايروي يشكل حضورا لافتا وظاهرة ثقافية في شعره ، ولا يمكن تجاهل ذلك او التغاضي عنه ، ولكن من الصعوبة اختزال سيميولوجيا الجسد في شعر حسين مردان بالبعد الايروي ، او البعد الحسي - الشهواني المحدود وتمثلاته الجنسية الظاهرة ، وانما قد يفتح فضاء الجسد على آفاق معرفية وتأويلية واسعة يمكن تلمس ظواهرها واستنطاق مكنونها الثقافي الحاضر في الانساق اللسانية ، لذا يسعى البحث الى تخطي المظاهر الايروسية في شعرته والانطلاق نحو مديات معرفية واسعة ، تتغيا الحفر في الطبقات اللسانية للكشف عن الانساق الثقافية المتعددة التي يولدها الجسد في شعره ، وهذه الانساق يمكن رصدها وكشفها وتحليلها للوصول الى أبعاد ثقافية شمولية لهذه الظاهرة الثقافية .

إن الجسد في شعرية حسين مردان قد ينتقل من البعد الايروي الذاتي الى البعد السوسولوجي او الثقافي الذي تنتجه النصوص ، وهذا التحول قد يكشف عن التصور الشمولي الذي قد تمنحه النصوص الشعرية ، لذلك وجب استنطاق الجسد ضمن سياق النص الشعري وارتباطه الوثيق مع المكونات النصية الأخرى ، فالجسد قد يتخذ صورا عدة يمكن ان تكشف عنها النصوص الأدبية ، فكل نص ينتج جسده الخاص وعلامته الثقافية الخاصة ، فالجسد قد يكون بركانا سياسيا وثوريا متمردا، وقد يكشف أحيانا عن كبت سياسي محموم يتفجر فيما بعد الى بركان سادي مضمهر يفضحه النص ، ويتسرب من فجوات انساقه اللسانية ، كما يكشف النص عن الذات المتأزمة والمتضخمة الغارقة في مرجعياتها السايكوبائية المعقدة ، وقد يفضح النص عن الصراع الاجتماعي المحتدم بين الطبقات الاجتماعية وتأثيره على الفرد ، وعبر قراءة النصوص الشعرية يمكن تصنيف الجسد في شعرية حسين مردان الى ثلاثة انماط هي :

١- الجسد الايروي .

٢- الجسد الاجتماعي .

٣- الجسد السياسي .

أولا: الجسد الايروي :

يشكل الجسد الايروسى مساحة فكرية واسعة في شعرية حسين مردان ، ويتنطع هذا الجسد لمواجهة الانساق الثقافية السائدة ويسعى الى خلخلة أسسها الفكرية والاجتماعية التي قامت عليها من أجل تدشين منظومة ثقافية مغايرة تضع الجسد في مركز اهتمامها وتوليه عناية فائقة عبر تسليط الأضواء الكاشفة عليه وتحويله من الجسد الصامت الى الجسد المتكلم ، ويتمثل هذا الجسد بأنماط ثقافية متباينة تنتجها النصوص الشعرية ، فصورة الجسد تتباين من نص لآخر ، ومن نسق ثقافي الى نسق آخر ، لذا لا يمكن تعميم الممارسة النقدية الواحدة التي تقارب جميع النصوص ، لأن كل نص ينتج نسقه الثقافي الخاص ويتجه الى تشكيل منظومة فكرية متباينة ، ولعل من أبرز هذه النصوص الشعرية التي يتجلى فيها الجسد قصيدة (للطين) التي يثور فيها على المنظومة الأخلاقية السائدة بقوله :

ما قيمة القبلات ان لم تنطفي
نار من الشهوات تسري في دمي
ما الحب إلا شهوة فلتبعدي
أم الزنا فمك المدنس عن دمي
بلظى الفجور يضح مثل جهنم
وذري أحاديث العفاف لمشعر
لم يفهموا سر الحياة المهم
ما الطهر ما الشرف الرفيع ما التقى
غير اختلاقات الزمان الأقدم
فاستهتري يا بنت آدم كلنا
في الأصل للطين المدنس ننتهي
وتهتكى وهي لكل مقيم
ما يشتهي من جسمك المتضرم (١٩)

إن النص يطفح عن حسية مفرطة تنأى كثيرا عن المرجعيات الأخلاقية السائدة وتسعى لتحطيمها بشكل جريء وعنيف وسافر عبر منظومة ايروسية طاغية ترسم معالم الجسد الذي قمعه المجتمع وأخفى ملامحه ، فالشاعر لم يصل الى تخوم المناطق المحرمة والمكبوتة في الذاكرة العربية وحسب ، وإنما سعى الى نسف التكلسات المشيدة التي دشنتها منظومة التحريم ورسختها عبر سلسلة من الاملاءات القهرية المهيمنة التي يرفض الشاعر الامتثال لها والخضوع لسطوتها وهيمنتها ، فينتفض الجسد المجرد العاري ويخلع كل الأقنعة التي تحجب وجوده العلني ، فالجسد هو الحياة والعدم ولا يمتلك مرجعية مثالية ينتهي اليها سوى وجوده المرئي ، فهو الموت والحياة ، واللذة والألم ، والمتعة والحرمان ، وبين هذه الثنائيات يتجلى عبر صبرورة من التحولات المرئية واللامرئية ، الواضحة والغامضة ، ويشكل انبثاقه تمردا ثقافيا يحطم كل التابوات المحرمة التي تحجب وجوده وتمنعه من التحرر والانعقاد من هيمنتها وعنفها الثقافي المسلط على الجسد، لذلك يتوق الشاعر الى وضع الجسد

المجرد على منصة التشريح الثقافي للكشف عن مكنونه الأيروسي الثائر على كل الانساق الثقافية والاجتماعية التي حاولت ترويضه ضمن منظومة ثقافية ليصبح الجسد انعكاسا لما يفرضه المجتمع عليه من أوامر ونواهي وسلطات مفروضة تقوّلب كيانه وتقمع حضوره ، فالجسد لا يكون مقبولا إلا إذا كان خاضعا للهيمنة الاجتماعية المفروضة عليه ، ولا يحق له التمرد او الخروج عن هذه الهيمنة ، لأنه سوف يكون جسدا متمردا مارقا ومنبوذا ، وهذا ما حاول الشاعر نسفه وتحطيمه لتأسيس مرجعية ثقافية مغايرة تنتمي للطين المدنس الذي رفضته الطروحات السائدة ، ويعلن خضوعه للطبيعة البشرية الفطرية قبل ان تدخل مرحلة العقل البشري الذي استطاع طمسها وتغييبها عن الوجود تحت ذرائع عقلانية عدة ، لذا يحاول الشاعر قراءة المسكوت عنه والمهمش الذي استبعده العقل وطرده من ملكوته المثالي ، فالجسد العاري إشارة واضحة للتجرد الفكري الذي يحاول نسف المثالية الأخلاقية التي أسسها التمرکز العقلي وطروحاته السلطوية المتكسدة التي يرفض الشاعر الامتثال لها والخضوع لهيمنتها .

وفي هذا السياق يرى (ميرلو بونتي) ان الجسد هو ما يحياه الانسان ويشعر بوجوده وليس ما يتعقله ويفكر به ، انه الصورة المادية التي نواجه بها العالم ، وبناء عليه تزول المسافة الفاصلة بين المثال والمادة ، وتتحطم ثنائية الروح والجسد . (٢٠)

إن الجسد الثقافي يكون بديلا عن الجسد المادي ، وفي هذا السياق يمكن ادراك العالم من خلاله ، فالظاهراتية تعلن عن إلغاء ثنائية الروح والجسد ، ليكون الجسد ممثلا وحيدا لادراك العالم وفهم تناقضاته ، فالوعي بالعالم لا يتم إلا عبر الجسد، والجسد ليس ما يتعقله الانسان ويفكر به ، وانما ما يشعر ويحس به ويتلمس وجوده المادي ، وبذلك تم تنحية ثنائية العقل والجسد من مجال الادراك لينوب عنها الجسد ، فهل يكون الجسد كاشفا وإضاءة وتنويرا لهذا العالم بعد ان عجز العقل عن ادراكه ؟ وهل يمكننا إلغاء ثنائية العقل والجسد لتندمج هذه الثنائية في بنية الجسد الواحد ؟ . ان هذه الاشكاليات تظل مطروحة من دون ان تصل الى مستوى الحسم القاطع .

إن صورة الجسد في هذا النص تنطلق من كينونة مكبوتة تعان الأثني من منظور جسدي بحت وترفض رفضا قاطعا جمالها الروحي ، فشكل الجسد الخارجي يمثل تمركزا فكريا يسكن الذاكرة الرجولية ويتحصن بها ، و هذه الصورة النمطية شكلتها الانساق الفحولية عبر التاريخ وأصبح الرجل أسيرا لتصوراتها ، وخاضعا لتمثلاتها ، ولا يقوى على مغادرتها أو كسر نمطيتها وإطارها الثقافي الجاهز ، لذلك تظل صورة الجسد في شعرية حسين مردان تتأرجح بين الثبات والتغيير ، بين الثورة على الانساق الثقافية السائدة وتدميرها حيناً ، والانصياع لتلك الانساق والامتثال السلبي لها حيناً آخر ، ويظل الشاعر يتردد بين هاتين الصورتين ، لضبابية الرؤية لديه وانحسار الوعي الثقافي القادر على انتاج منظومة فكرية متناسقة ومنظمة ومتكاملة تنصدي للمنجز الثقافي المطروح والمغروس في أعماق الذات العربية وأفقها الثقافي الراسخ .

وقد يكشف النسق المضمّر في النص عن نهليستية تقبّع خلف الانساق اللسانية ، فالعبث الذي يقبع خلف كلمات الشاعر قد يكون فقداناً للأمل وانهاياراً للمعنى وزوال الغاية من هذا الوجود ، وقد يكشف عن تهافت المنظومة الاخلاقية الموروثة ، كما يشير الى ازدياد الروح وتغييبها والاحتفاء بالجسد الأيروسي الحاضر بعنفوانه وملذاته الحسية الغارقة في كينونته المادية

المجردة من كل شيء والمنفصل تماما عن مرجعياته الأخلاقية ، والسائر بدافع الضرورة الحتمية وحدها ، ليحيل هذا الجسد الى احتضار القيم وتفتيت الحضارة ، وبناء على هذا يكون الجسد وسيلة للوصول الى تخوم النهلستية وأفقها المظلم الذي يسكن لاوعي الشاعر .

إن الفن أحيانا يكون بديلا عن عالم الواقع ، ويكون رفضا واحتجاجا على قيم الواقع الساكنة وعدم الامتثال لها ، وقد يكون كشفا عن القلق الوجودي الانساني والانهيار الاخلاقي الماكن في الزوايا المعتمة للذاكرة الانسانية ، وقد يسهم الفن في مساءلة الانساق الثقافية الحاضرة ومخاطبتها ، كما يسعى وبشكل جاد الى بناء عالم فكري مواز تشييده الكلمات ينأى عن النماذج الفكرية الثابتة التي يمتثل لها الكثير من البشر ويرفض تغييرها . (٢١)

وفي ضوء ذلك قد تكشف نصوص الشاعر عن قلقه الوجودي القابع في أعماقه الفكرية القلقة التي تعاني الغربية والاستلاب والانكفاء نحو الذات والتمزق الداخلي ، لذلك حاول الشاعر انتاج نصوص شعرية ايروسية تكون موازية لعالم الواقع وتصبو الى المساعدة في فهم العالم وادراكه والعيش فيه والانتماء القسري إليه ، وهذا ما يكشف عنه النص الشعري الطافح بالجسد والفوضى وانحلال النسق الثقافي .

وفي نص آخر يفصح الجسد عن ثيمة أخرى بقوله :

إبليس والكأس والماخور أصحابي

نذرت للشبق المحموم أعصابي

من كل ريانة الثديين ضامرة

تجيد فهم الهوى بالظفر والناب

× × × × ×

وقع السياط على أردافها نغم

يفجر الهول في أعراقها السود

تكاد ترتجف الجدران صارخة

إذا تعرت : أهذا الجسم للددود؟

صفراء تصطرع الثارات في دمها

من كل عرق باسم الأثم محتقن

تمتص من شفقي الروح في نهم

وتزرع الموت أسنانا على بدني

أضمها وبودي لو أمزقها

لهدأ اللهب المسعور في كبدي

نشوى تنام على صدري مرددة

فديت يا فوهة البركان من جسد (٢٢)

ينبلج الجسد في شعرية حسين مردان عن كينونة متأزمة ومكبوتة بشكل عنيف مما أنتج متخيلات جنسية مكبوتة ومنقمة تتسامى عن طريق السلوك السادي العنيف الذي يلحق الأذى بالآخر، ويدمره اثناء ممارسة جنسية غير متكافئة تسعى للهيمنة المطلقة على الآخر وسحقه من أجل تأكيد ذاتها ، فالكبت الجنسي المنقمة بعنف قد يحيل الى سلوكية سادية مدمرة تتفجر عبر المتخيل الشعري الذي يكون الحاضنة الثقافية لهذه السلوكية من جهة ، والكاشف عن وجودها من جهة ثانية ، وهذا السلوك السادي يتجلى في النص عبر مكوناته (الظفر ، السوط ، التمزيق) اثناء ممارسة سلطوية تمارس فعلها القهري على الآخر ، وقد يكشف هذا السلوك السادي عن تضخم ذاتي أو احباط نفسي مدمر وخيبة أمل مريرة أو كبت جنسي منقمة بشكل عنيف أنتج شخصية سايكوباثية معادية للمجتمع وناقمة عليه عبر تدمير أنساقه الثقافية السائدة التي أسهمت في قمعها وتقييدها ، لذلك تسعى الذات الى انتاج منظومة ثقافية متحررة ومنفلتة من كل مرجعياتها الثقافية لتستعيد هذه الذات جزءا من توازنها النفسي المفقود ، ولتتشرع بانتمائها الاجتماعي المهدد بالعزل والتهميش .

إن الجسد يبجل الحياة واحتمالاتها ، وقد يعلن عن لحظة النشوة أو الموت القادم ، فالكائن البشري هو كينونة متجسدة ، ويكون موثوقا بالعالم عبر الجسد ، لذلك تظل تجربة الجسد تجربة مضاعفة : لأننا نقيم تجربة مزدوجة معه ، فهي متعته وأذيته في الوقت ذاته ، فالجسد يتمتع بالمداعبة من جهة ويعاني من لسعة النار وحرقتها من جهة أخرى ، ويظل الجسد متمثلا عبر ثنائية اللذة والألم . (٢٣)

وفي ضوء ذلك يمكن القول ان للجسد وجودين : وجود خارجي يتعامل مع العالم المادي الخارجي ويكون جزءا منه ، ووجود ذاتي يشير الى داخل الفرد ويرتبط ارتباطا رمزيا مباشرا مع فكره اللاواعي الذي ينبلع جليا من خلال النص الابداعي ، ويبقى الجسد كينونة محصورة بين مظهره الخارجي ومظهره الداخلي ، ويتأثر كثيرا بالمؤثرات الخارجية التي تترك أثرا واضحا على وجوده الداخلي ، وتغوص عميقا في ذاكرة الجسد ووعيه الباطن ، وتحفر بصمتها على جدار هذا الوعي وتضاربه غير المنظورة ، لذلك يظل الجسد صيرورة متحولة بين عالمين هما : الخارج والداخل ، بين الظاهر والباطن ، الحضور والغياب ، اللذة والألم ، الحياة والموت .

إن جغرافية الجسد هي جغرافية الحواس الحية التي تتمظهر الى الوجود عبر اسراف الحواس داخل الاطار الايروسي ، ولا يتوانى العالم الخارجي في منح نفسه بوصف الحواس تجليات ممتعة لا تنفذ وتتواصل بشكل مستمر من أجل الاشباع الغرائزي المكبوت ، وبذلك تتولد العلاقة الجدلية بين الجسد والعالم ، فالنشاط الادراكي هو الذي يجعل المرء يرى ويتلمس ويتذوق ويسمع ، كما يدفعه الى إنجاز علامات خاصة تسهم باكتشاف العالم الذي يحيط به ، ويذكرنا هذا بأن الجسد صنيعه السياق الاجتماعي والثقافي الذي ينتجه ، ويشكل علامة ثقافية عبر علاقته بالعالم الخارجي والامتثال لطقوس التفاعل الجسدي مع الآخر عبر الحركات والايماءات والمداعبات . (٢٤)

إن الجسد في هذا النص يكشف عن علاقة الحوار الجدلي مع المكان ، فتفجر الحواس يتمدد عبر المكان المغلق (الماخور) وينداح عبر أسواره الضيقة ، ويتمركز في بؤرته الخائفة التي تكبل حضوره العلني الفاعل ، وهذا يعني ان حركة الجسد

وتفاعلها مع العالم الخارجي كانت حركة مقيدة ومبتسرة ، ولم تكن حركة تفاعلية مفتوحة ومتنامية ، فالشاعر لم يطلق العنان لحركة الجسد وحواسه الظاهرة ، ولم يتفاعل مع العالم الخارجي بأفق ثقافي مفتوح يوحي بالعديد من الدلالات الثقافية الحاضرة في النص ، والكاشفة عن أفق ثقافي مقولب ومحدود في حركة التغيير الثقافي والاجتماعي التي كان الشاعر يصبو اليها ، لذلك يمكن القول ان حركية الجسد المحدودة في هذا النص قد توجي بضيق أفق التغيير وسكونيته ، مما أنتج جغرافية جسدية لم تتحرر من هيمنة الفضاء الذي تنتمي اليه ، وظلت تدور في فلك هذا الفضاء ولم تنفلت من مداره ، فوقعت أسيرة مما كانت ترمي الى الخلاص منه .

ويتمرأى الجسد الثائر في قصيدة (اللحن الأسود) التي يقول فيها :

تهترمن هول اللهب أضلعي	فكأنما بين الضلوع جهنم
يامن أكاد إذا التقت بعيونها	عيناى يأكلي الحنين الأعظم
ما بال وجهك كالحجارة جامدا	وعلام ثغرك عابس لا يبسم
أمنت بالحب الذي في خافقي	وكفرت بالحسن الذي لا يرحم
جن الجنون فكل عرق أزرق	في صدرك الفضي يحرقه الدم
عيناك تبدي لي الجفا لكنما	شفتاك تدعوني فينتفض الفم

× × × × × × × × × ×

أهواك نهذا ثائرا لودغدغت	شفتاي برعمه : لظى يتفجر
أهواك لحننا أسودا ينساب في	خدر لذيد في العروق يتكسر
أهواك زقوما يفتت أضلعي	أهواك دنيا بالمصائب تزخر

× × × × × × × × × ×

مر الشباب يجرفي أذياله	عمرا يكفنه الفراغ الموجه
فحفرت للأحلام مئوى في دمي	وغدوت أرضى بالقليل و أقنع
حتى إذا ظهرت حقيقتي التي	قد كنت أجهلها وشق البرقع
أدركت اني قد خدعت فلم أعد	أخشى عناق الأثم أو أتورع
فبصقت في وجه الفضيلة هاتفا	وجه الرذيلة بالسما مقنع
ومضيت اغتصب اللذائذ عنوة	حمراء تعول كالجنون وتفزع (٢٥)

يعمل الجسد على دمج الانسان ضمن إطار اجتماعي وثقافي فاعل ، لأن الانسان يحمل الملامح الاجتماعية منذ لحظة ولادته ثم تفتح هذه الملامح من خلال عملية التنميط الاجتماعي الذي يضع الفرد ضمن سياق اجتماعي وثقافي يتم تشييده عبر منظومة فكرية وثقافية تتناغم مع طبيعة ذلك المجتمع .

ويتسرب النظام الاجتماعي الى الانسان عبر الممارسات الثقافية ، لذلك يظل التعبير الجسدي متغيرا حسب نمط اسلوب الحياة الذي يعيشه الفرد ، ويأخذ أنماطا أخرى حسب طبيعة الأدوار الاجتماعية التي يمثلها ، كما يتأثر هذا التعبير الجسدي بالأدوار المؤثرة التي ينجزها الفاعلون الآخرون الذين يمنحون الجسد التضاريس الاجتماعية اللازمة له ، كما يسهمون اسهاما فاعلا في تشييد الجسد الفاعل والمتناغم ضمن إطار المجموعة التي ينتمي اليها ، لذلك تدرك الإشارات الجسدية ضمن السياق الثقافي الذي ينتمي اليه الجسد ، ولا يمكن فهم هذه الإشارات بعيدا عن ذلك السياق ، لأنه سوف يكون سلوكا منفصلا عن سياقه . (٢٦)

يظل الجسد في (اللحن الأسود) علامة ثقافية مفعمة بالإشارات والدلالات التي يرصدها المتلقي ويحاول تأويلها وفق سياقها الثقافي الذي وردت فيه ، ولعل من أبرز ملامح الجسد في هذا النص هو فردانيته وانفصاله عن سياقه الاجتماعي وعدم اندماجه فيه ، فالجسد أصبح مؤشرا حيويا للانفلات من السياق الاجتماعي والقطيعة معه من أجل انتاج ذاته المتفردة اللامثلة للهيمنة المفروضة عليها ، فالجسد الايروي في هذا النص يعلن عن تصالحه المؤقت مع السياق الاجتماعي ثم يعلن انفصاله عنه وتمرده عليه ، ليحقق فردانيته المسحوقة عبر التخيل الشهواني الذي يصبو الى سعادة مفرطة عبر اشباع الجانب الغرائزي الذي يشكل الدفق النابض في أعماق الذات ، ويرفض الامتثال للهيمنة الأخلاقية التي تمارس على الجسد وتقمع حضوره ، فالشاعر يبصق في وجه الفضيلة ليعبر عن احتجاجه الصارخ ضد المنظومة الأخلاقية التي تختزل المتعة في مساحة ضئيلة وخانقة .

ويحاول المفكر (ميشيل فوكو) اشكالية القمع الحضاري والثقافي لكيثونة اللذة ، ويرى ان السياق الفكري والحضاري والثقافي والديني يربط ربطا تعسفيا مباشرا بين الانجاب واللذة الجنسية ، ولا يمكن الفصل بينهما لأي سبب كان ، وبذلك تقمع اللذة الجنسية التي تنفصل عن الغاية الموضوعية لها ، وتحارب ويتم اجهاضها بعنف ، وكل فعل لا يهدف الى الانجاب فإنه يفتقد شرعيته في الوجود ويفقد حق الافصاح والتعبير عنه ، ويبقى عنصرا مقصيا ومطرودا من منظومة القيم ، ويحكم عليه بالنبد والهميش والاقصاء ، وهو لا يكون موجودا في السياق الثقافي وحسب ، وانما عليه ان لا يكون موجودا أصلا ، ويتم حذفه بشكل قسري وممنهج . (٢٧)

إن مصادرة اللذة الجنسية واقتصارها على الوظيفة التناسلية في السياق الاجتماعي قد أجهض انبثاق الجسد كظاهرة حيوية وثقافية مناهضة للسلطة ومعادية لها في الوقت ذاته حين أصبح وسيلة للإنجاب وليس غاية ، لذا سعى الجسد في (الحن الأسود) الى فك الارتباط الوثيق بين اللذة والانجاب وتقويض العلاقة الرابطة بينهما ، تمهيدا لنسف المسلمات الاجتماعية الموروثة التي تقمع اللذة المنفلتة عن الوظيفة التناسلية والتي تجعل الجسد وسيلة للوصول لها وينتهي دوره باكتمال هذه المهمة الموضوعية للجسد ليصبح آلة جامدة فاقدة للحس والحياة ، لذا حاول النص تقويض الطروحات السائدة التي تغيب اللذة ، وتحجم دورها ، وتصادر الكتابة عنها ، وتحجب تماثلها الثقافية في الفن والأدب ، ويظل الفن احتجاجا ومناهضة ضد حالة الاستلاب الثقافي الذي تنتجه الهيمنة الثقافية وهي تمارس دورها في قمع اي انتفاضة فكرية تخالف عرفها الثقافي السائد ، فالشاعر في الجسد الايروي حاول كشط الجلد للوصول الى صلابة العظم من أجل معرفة

خلخلة العلاقة الرابطة بين الرجل والمرأة وقطع مرجعيتها المثالية المجردة ومحاولة اقتحام كينونتها الداخلية لرؤية بنيتها الداخلية وسبر أغوارها، وبذلك يتمثل الشاعر مع طروحات (ميرلو بونتي) السابقة التي ترى الجسد ما يحياه الانسان وليس مايفكر به ويتعقله . (٢٨)

ثانيا : الجسد الاجتماعي :

تعد السوسولوجيا الجسد الانساني علامة ثقافية مائزة تنتمي الى سياق ثقافي يوضع وجوده ويمنحه طاقة إشارية منجزة تسلط الضوء على زوايا متعددة من مساحة ذلك الجسد ، وتكشف عن نقطة التمفصل الكامنة بين الجسد وسياقه الاجتماعي، وكيفية انصياغه لهيمنة هذا السياق وامثاله له ، لذلك أهتمت السوسولوجيا بمعاينة كل الطقوس التي يمارسها الجسد لتأكيد حضوره وانتائه الاجتماعي والثقافي من جهة ولبيان دلالاته الثقافية المتخيلة من جهة ثانية ، فالجسد دال ثقافي متخيل بشكل فعال ومتغير من سياق اجتماعي الى سياق اجتماعي آخر .

إن الجسد بنية ثقافية ينقشها التاريخ ويحفر بصماته على خريطتها ، ويظل هذا الجسد ساحة مفتوحة لتسجيل الحوادث، وهو كتلة تخضع لتفتيت مستديم وبناء متجدد ، وتتجلى على سطحها حفريات السنين بمؤثراتها وتفاعلاتها وتمظهرات الثقافات التي تشكل الجسد وفقا لايدولوجيتها ومرجعياتها الفكرية . (٢٩)

إن اقتحام الجسد الفضاء السوسولوجي شكل فتحا معرفيا جديدا يغوص في اشكاليات ممارسة الجسد الاجتماعية التي تتجلى في حركة الجسد وتشكلاته الخارجية وتفاعله مع العالم الخارجي من جهة ، وتفاعله مع الآخر من جهة أخرى ، وبذلك يتحول الجسد الى منبع للعلامات والاشارات الثقافية التي تتولد منه وتتناثر في الفضاء الاجتماعي لتحواله الى بؤرة ثقافية مولدة ومنتجة تؤسس للتعاضد الجماعي والفردى ، وتعمل هذه البؤرة على موضعة الجسد ضمن إطار اجتماعي وثقافي فاعل ، لأن الجسد يكون أكثر صدقا في إنتاج الحقيقة ، فالبشر يضعون الأقنعة ويميلون الى التصنع والكذب والرياء ولكن اجسادهم تنطق بشيء مخالف لأقوالهم ، فاللغة مراوغة ومختالة ولا تفصح عن المكنون الانساني ولكن الجسد يكون صادقا وكاشفا عن المكنون الانساني وهو يقول الحقيقة أكثر من اللغة ، وبسبب ذلك تمحورت الدراسات حول الجسد بوصفه حاملا للعلامة الثقافية وبكونه ممثلا ومنتجا للحالة الاجتماعية .

ويتحول الجسد في شعرية حسين مردان من الجسد الايروسي الى الجسد الاجتماعي في العديد من النصوص الشعرية ليكون الجسد الايروسي هامشا يدور في فلك مركزية الجسد الاجتماعي ، وقد يكشف الجسد الايروسي عن العديد من التمثلات الاجتماعية المتناغمة معه والكاشفة احيانا عن تموضعه الاجتماعي وانتائه ، وبذلك يكون الجسد الايروسي جسرا للعبور الى الجسد الاجتماعي وعنصر يساهم في تشييد اجتماعية الجسد ، وهذا ما نلمسه في مجموعة من القصائد ولعل من أبرزها قصيدة (بنات الليل) :

طفلة من بنات الليل ساهمة	قد جمدت فوق جفنيها الصبايات
إذا مشت خلتها أنشودة همست	بها النجوم وغنتها السماوات
ناديتها فانثنت نحوي وقد شهقت	في الأعين الزرق للبلوى شكايات

كزهرة ضمها مستنقع قذر
لم تبق سود الليالي من غضارتها
تعفن المرض الملعون في دمها
قالت وقد كشفت عن صدرها فبدا
وانزاح مآزرها عن ساقها فإذا
إني أرى النار في عينيك جائعة
أجئت لتطفي هذي النار في جسدي
يا أخت روعي إن الحب مهزلة
فلاتعيدي حديث الحب واضطجعي
لقد عشقت وجربت الهوى زمنا
فتمتت بفتور وهي تدفعني
وكفنت عطرها الفواح آهات
غير اصفرار تغذيه النفايات
فالسّم في شفيتها والمنيات
نهد يهش لمرآه السموات
شواطيء تتصابها الغوايات
الى الدماء فتشويك النهايات
ويل لمن عبثت فيه الشريقات
كبرى نهايتها بؤس ومأساة
فالحب وهم تغذيه الخيالات
حتى نحلّت وأردتني الحبيبات
الى السرير ستفنيك الملدات (٣٠)

يتماهى الجسد الايروسي مع الجسد الاجتماعي في بنية نصية واحدة ، وقد يفصح ليكون جسدا متحوّلا من الحالة الايروسية الذاتية الى الحالة الاجتماعية التي تكشف عن اضطراب وجود الجسد داخل البنية الاجتماعية ، فالجسد في هذا النص يسفر عن اختلال المعادلة الانسانية وانهارها ، لأنه يوضح حدة الصراع المحموم بين الطبقات الاجتماعية داخل النسيج الاجتماعي الواحد ، ويتحول الجسد هنا الى صرخة احتجاج مكتومة تن تحت سياط العوز والحرمان والفاقة ، وتنشج بوحها المهودر في هدوء وصمت ، فهي اجساد ممزقة طحتها البؤس واضناها الحرمان واجهضت حضورها الفاقة ، فتحوّلت الى أجساد خاوية يملؤها الصدى .

ويظل الجسد صناعة ثقافية واجتماعية ، وهو يبني اجتماعيا سواء في اشتغاله في المشهد الثقافي العام ، ام في التصورات التي تكشف عن وظائفه المتعددة أم بعلاقته مع الآخر ، لذلك يكون الجسد متخيلا ثقافيا فعلا مثل المجموعة الاجتماعية التي ترسم منجزاتها ومتخيلاتها بشكل متناقض من مكان لآخر داخل المنظومة الاجتماعية الانسانية . (٣١)

إن الجسد الايروسي أصبح عتبة للدخول الى فضاء الجسد الاجتماعي وتمثلاته المتباينة التي تختلف من مجتمع لآخر ، مثلما تتباين بشكل حاد داخل الوسط الاجتماعي الواحد ، فتعلو طبقة اجتماعية وتهبط طبقة اخرى ، ليكشف هذا الجسد عن حدة الصراع الاجتماعي بين الطبقات ، لأنه جسد تم تشييده اجتماعيا فأصبح كاشفا عن اشتغاله الاجتماعي وممسرحا دوره في ذلك السياق كي يظهره الى العلن من جهة ، وليعلن انفصاله عن المكان واغترابه من جهة ثانية ، فهو ينتهي مكانيا الى السياق الاجتماعي وينفصل عنه نفسيا وبذلك يعلن عن اغترابه وعزلته وانفصاله .

إن الجسد في هذا النص يمتن اللذة التي تؤكد حضوره الاجتماعي ، ذلك الحضور المهمش والمقصي ، فالجسد في هذا النص يعلن احتجاجا صارخا على قيم الحضارة الانسانية التي قولبت حضوره ومسخت كيانه وحولته الى سلعة تجارية تمنح لمن يدفع وتخضع لقوانين العرض والطلب ليتم شيئنة الجسد وسلعته ، وبذلك يدخل الجسد مرحلة التسليع

والاستهلاك ، وهي أشد لحظات العنف الذي يمارس على الجسد ، لذا يمكن القول ان تسليع الجسد ما هو إلا سلطة مضاعفة تسلط على الجسد فهي تحوله الى سلعة مادية يتم تفرغ محتواها الانساني والثقافي ، لتكون سلعة رائجة ومربحة من جهة ، ومستلبة ومفرغة من جهة أخرى ، ويتم فيها انتهاك حرمة الجسد وطاقته الانسانية ، فالثقافة السلعية هي ثقافة امتهان واحتواء في الوقت ذاته ، لأنها تقوم على تآكل الجسد والتهامه وزجه في سياق تجاري يمتن كرامته الانسانية وينتهك وجوده ليتحول من كيان انساني الى كيان مادي بحت .

ومن القصائد التي يتجلى فيها الجسد الاجتماعي قصيدته (عبادة القبح) التي يقول فيها :

مجنونة النظرات ما عانقتها	إلا سرت نار الجحيم بأعظمي
فكأنما سقريضج لبيها	ويموج في تلك المراشف والضم
قالت وقد مالت عليّ بجسمها	ورنت إلي بذلة المستسلم
ماذا رأيت عيناك بي من فتنة	ف عشقتني يا نورقلي المظلم
وأراك كالفجر الضحوك ملامة	تهفو القلوب لسحرك المتحكم
فأجبتها وأصابني بنهودها	تلهو ونار الوجد تعصف في دمي
إني عبت بك اللظى فلتشعلي	جسدي الشهي بجسمك المتضرم
وذري أحاديث الجمال فأني	صبُّ بحبِّ القبح جد متيم
وان استطع - قسما بكل قبيلة -	لشنتقت أهل الحسن دون ترحم
هم أصل بلوتنا وأهل شقائنا	لولاهم لم نأت أي محرم (٣٢)

إن تسليع الجسد يشكل علامة ثقافية حاضرة في هذا النص ، ويخضع هذا الجسد لسلطة قمعية قاهرة تستنزف حيويته وتكبل حريته وتختزل وجوده الى صورة حسية مجردة تكون غايتها الامتاع واللذة ، وهنا يكون الجسد محكوما بالثقافة النسبية السائدة التي تخضع الجسد لهيمنتها وسطوتها ثم تمنحه الصورة التي تريدها هي وليس الصورة التي يريدتها هو ، فهل يتخلص الجسد من سلطة ليجد نفسه أسيرا لسلطة أخرى؟ ، وهذه التحولات الجسدية يمكن ان تكون تحولا من سلطة العقل الى سلطة المؤسسة الثقافية ، ومن سلطة المؤسسة الثقافية الى سلطة الاستهلاك السائدة فهي وان كانت جزءا من السلطة الاجتماعية إلا انها تشكل انحدارا عنها ، ويظل الجسد أسيرا لهذه السلطات التي تحكم قبضتها عليه وتحدد مساره ، ويظل محكوما بضغط العنف المسلط عليه عبر هذه السلطات ، وعلى الرغم من الصورة الثقافية التي أنتجتها الثقافة السائدة ، فإن الجسد في نص (عبادة القبح) يظل كيانا اجتماعيا متمردا على الانساق الثقافية السائدة ، فالجسد يسعى لتقويض معايير الجمال الخاضعة للسلطة الثقافية المهيمنة ، ويسعى لانتاج نسق ثقافي مغاير يتجلى في (جماليات القبح) التي يكون الشاعر متيما بها ، وبذلك ينمجي عنصر الاغراء المقترن بجمالية الجسد وشهوانيته ، وهو يقع ضمن ثقافة تسليع الجسد واستهلاكه ورضوخه لمباديء السوق ، وهذه الثقافة هي نمط من انماط الهيمنة القسرية التي تمارس على الجسد

وتفتت كيانه ، لذا يحاول النص انتاج نسقه الثقافي المتمرد على هذه الهيمنة ويتنطع لمواجهتها عبر انتاج نسقه الثقافي الخاص الهارب من نسق الثقافة الاستهلاكية التي انتجت جمالية الجسد واغوائه .

إن الحضارة الراهنة بارعة في التصنع والتجمل والتورية ، فهي لا تكشف عن وجهها القمعي القبيح للجسد ، وانما تواريه خلف أنساق ثقافية ماهرة ومظلمة، فهي حضارة قائمة على الاستهلاك والانتاج اللذين يقومان بتنمية الهيمنة والقمع والقهر المسلط على الجسد، وتعتمد الى مواراة هذا القمع تحت استار مظلمة، فهي لا تظهره بشكل مكشوف وسافر وانما تعمد الى تحديده وتوجيهه على وفق غاياتها المحددة سلفا.(٣٣)

إن الجسد لم يعد كتلة مادية صامتة وجامدة تشح فيها الحياة وحسب ، بل أصبح وعيا ناطقا يضج بالحيوية والحياة ، ويكون مترجما للتصورات الفكرية ، وناطقا حيا لمقولاتها ، ويعمل على تمثيل هذه التصورات وتحويلها الى انساق ثقافية دالة ، وتزداد فعالية الجسد عندما ينتهي الى سياق اجتماعي يقوِّب حضوره وينقش قوانينه ويحفر بصماته على سطح هذا الجسد، ويجري ذلك حسب طبيعة كل مجتمع وسننه وأنظمتها الثقافية المتباينة ، ولعل من أبرز الحفريات التي تمارس على الجسد وتضع بصماته عليه هي المتاجرة بالجسد وتسليعه وزجه في السياق التجاري الذي ينتهك وجوده ويهيمن عليه ويمارس عليه عنف السلطة وجبروتها ، لذا يحاول الجسد مخالطة السلطة ومقارعتها وعدم الامتثال لهيمنتها وسطوتها ، وهذا ما تكشف عنه نصوص الشاعر التي تحاول اجترار نسق ثقافي مغاير .

إن الشخصيات الاجتماعية التي جسدها الشاعر هي شخصيات متأزمة تفصح عن واقع اجتماعي متأزم يسكن وعي الشاعر واستطاع تسريبه عبر الكتابة ، لذلك يحاول وضع هذه الأجساد المتأزمة في مركز النص وبؤثرته بعد ان همشها الواقع الاجتماعي، فما كان مهمشا في الواقع أصبح مركزا في النص الشعري ، كما حاول الشاعر ان يجعل منها نسقا ثقافيا فاعلا ينتج دلالات عديدة يمكن مقاربتها وتأويلها ، وقد يكشف هذا الوعي المتأزم احيانا عن انفصال الشاعر عن نسقه الاجتماعي السائد من أجل تدشين نسق ثقافي مغاير ينتجه التباين الفكري الحاد الذي ينتهي اليه الشاعر ، ولعل من ابرز مظاهر هذا الانفصال قصيدته (ميلاد شيطان) التي يقول فيها :

يا يوم مولدي المشؤوم ما فتئت	ذكراك تزعج أهل البيت أحيانا
فهل أتيت الى الدنيا لأملأها	خزيا وعارا وكفرا وأحزانا
رقصت فوق يد الأهوال مبتسما	عشرين عاما فلم أتعب ولم أنم
وعشت في عتمة الماخور منطرحا	فوق اللحوم فلم أشبع ولم أنم
وجئتني اليوم تبغين الهوى قبلا	بيضاء تنضح بالأحلام والأمل
هومات لم تترك اللذات في شفتي	يا منية النفس غير القيق والممل
أدعي الطهر والدنيا بأجمعها	تطفو وتغطس في مستنقع نتن
أنا وأختي وأمي والورى وأبي	تسري بأصلابنا الأرجاس من زمن (٣٤)

إن جسد الشاعر المنطرح فوق اللحوم قد أصبح بنية اجتماعية منفصلة ، لأن حياته غدت عبئا ثقيلا لا يقوى على الانفلات منه ، لذا ظل رهينا لسلطوته المهجنة ، مما جعل وجوده تشاؤميا وفوضويا وسوداويا ، فالشاعر عاش صراعا فكريا مريرا بين المعنى واللامعنى ، بين النظام الذي يؤمن به والعبث الذي يراه حاضرا في الواقع ، فأقترب من تخوم العدمية عبر عبثية الحياة وقسوتها وعنفيها ولا عقلانيتها ، فتوجه الى الشكل لخواء المعنى في حياته ، وانغمس في الجسد لاحتضار الروح في أعماقه ، فالجسد ظل حاضرا في أغلب نصوصه ، ومحتفى به وبملاذاته لأنه الممثل الوحيد للذات حسب تصوره ، وهو الكينونة التي يشعر الشاعر بوجودها وحضورها لذا وضعه تحت المجهر ليعمد الى تشريحه بشكل دقيق ، فبدون هذا الجسد يكون عدما وفراغا وسرابا يرفضه من أعماقه ، والطريقة المثلى للشعور بهذا الجسد هي تحسسه عبر اللذة والألم والمتعة التي غزت شعرته بشكل كثيف ، وبدون هذه اللذة ينفصل عن الوجود ويفقد قيمته الانسانية حسب تصوره ، لذا يمكن القول ان الانكباب على الجسد بهذه الصورة يكشف عن انحلال الروح في أعماقه وذوبانها ، واعتلاء الجسد منصة الذات ليكون بديلا عن الروح التي يفتقدها أو يرفض الامتثال لها .

وقد يسفر انفصال الجسد عن وعيه الاجتماعي عن أسباب عديدة ، لعل من أبرزها حالة التشرذم الأسري والتفكك الذي يعاني منه الشاعر ، فضلا عن ضغط الواقع الذي يحاصره من كل اتجاه ، وقد أسهم هذا التفكك في تشظي وعي الشاعر من جهة ، وانفصاله عن سياقه الاجتماعي ومنظومته الاخلاقية من جهة ثانية ، وهذا الانفصال لم يكن انفصالا طوعيا وإنما كان انفصالا قسريا سببته الظروف الاجتماعية القاسية التي عاشها الشاعر .

ثالثا : الجسد السياسي :

يسفر انفصال الجسد من وعيه الاجتماعي عن أبعاد سيميائية عديدة يمكن رصدها في النصوص الشعرية ، ويظل الجسد بنية اجتماعية ممتدة في الزمان والمكان ، وتتغير حسب سيرورة تغير الوعي الاجتماعي ، ويصبح الجسد أحيانا نافذة مشرعة تطل على هذا التغيير الاجتماعي حين يشتبك الوعي الاجتماعي مع الوعي الذاتي ويتماهيان بشكل مندغم ومتناسق لتشييد هرمية ثقافية مناهضة لوعي الاستلاب الذي ينتج من حالات اليأس والقنوط والاحباط .

إن الجسد الايروسي عند حسين مردان لم يعد جسدا منغلقا على ذاته ، بل أصبح جسدا منفتحا على فضاءات معرفية يتخطى فيها الشاعر هواجسه وهمومه المقموعة اجتماعيا ، وينطلق نحو آفاق تأويلية واعية تسبر علل المجتمع وأمراضه الدفينة ، وتنبش في جذورها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية لتصل الى نقطة التأسيس الأولى التي تنطلق منها كل الاشكاليات المعرفية المتباينة .

ولعل من أبرز النصوص الشعرية التي يتجلى فيها البعد السياسي للجسد هي قصيدة (وقفه مع الزمن ١٩٥٨) التي يقول فيها:

تمهلوا .. فأنتي الزمان

أريد أن أمر في سكون

فها هنا لا تفتح العيون

فكل شيء في ربي السلام

ينوح في الظلام ..

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

لم تك بالأمس هنا شموع

أو جموع ..

كانت هنا دموع ..

وأذرع من الأسي تموع

كانت هنا ماكنة العذاب

تدور من عصور

تلوي بها الرقاب

وتسحق النسور

فتذبل النساء في الخدور

اليوم في بغداد .. في مدينة السلام

يغرد الحمام ..

الماء في (الفرات) نور

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

لنرفع القصور في الفضاء

فتمرح القحباب

في غرف أحلى من السماء

كنا هنا نذوب

ونحسن القلوب

لنتنج العطور..

لعاهرات ملها الفجور

كنا هنا موتى ، لها الحياة

نصطاف في السجون

ونعصر الجفون ..

لتنبت الأزهار في حدائق الطغاة (٣٥)

يعد الجسد موضوعا حيويا للاستنطاق والمساءلة والمحاورة ، لأنه لم يعد يحدد تاريخ الانسان ويرسمه وحسب ، وانما أصبح عنصرا ثقافيا يظهري التحولات الاجتماعية التي يشهدها المجتمع من خلال تماهي (الأنا) ب (نحن) فتشتبك

الهويات وتتلاشى الحدود الفاصلة بينهما ، ليصبح الجسد مسرحاً تتمرأى عليه الأحداث والخطابات ، ويحمل تضاريس الحياة وبصماتها، ولكنه يقع أسيراً وخاضعاً لهيمنتها وسطوتها ومنصاعاً لانساقها الثقافية التي تموضعه في سياق ثقافي خانق وتؤطر وجوده بأسوار ملغمة وحدود وهمية مفترضة ترسمها العقول وتنفذها السلوكيات الاجتماعية ، لذا يمكن القول ان الجسد يظل عنصراً متصللاً بالوعي الجماعي الذي يترك بصمته عليه ، ويحدد مساره ويكون رهيناً لتصوراته .

وينتفض الجسد من هيمنة السياق الاجتماعي ويتوق الى التحرر والانفلات من هذه الهيمنة ويغادر سلبية الانتماء المفروضة عليه ، ويتحول الى علامة فاعلة ترفض السلبية والخنوع والانزواء وتتطلع الى حالة ايجابية مدهشة تنسلخ من سياقها الثقافي وتستشرف آفاق التغيير القادم .

إن الجسد في هذا النص كان جسداً ايجابياً متمرداً على سياقه الاجتماعي وساخطاً عليه ولكنه يصبو الى التغيير ولم يكن جسداً سلبياً ، وإنما كان جسداً فاعلاً يشخص الخلل ويهدف الى تغيير الواقع وعدم الاستسلام لهيمنتها وسطوته ، فالأذرع العاملة والرقاب وأجساد البغايا لم تعد أجساداً مهزومة اجتماعياً ، تعلق انكساراتها واحباطاتها وجراحاتها المهذورة ، وانما أصبحت أجساداً منتفضة رافضة لواقعها الاجتماعي ، لأنها تؤمن ان البؤس والفاقة والحرمان ليس قدراً إلهياً مفروضاً عليها من السماء ، وانما هو قدر انساني مفتعل يكون ناتجاً عن استئثار الانسان بالثروة وسوء توزيعها ، لذا تتوق هذه الأجساد المهمشة للخلاص من سطوة الاغتراب الاجتماعي الذي تعاني منه ، والمطالبة بحقها الطبيعي في الحياة بعد ان تنسلخ من ذاتها وتكون صوتاً صادحاً معبراً عن وعي الجماعة وتحولاتها عبر الزمن .

إن الجسد السياسي لا يكون تمرداً على نسقه الاجتماعي وحسب ، وانما يسعى الى تغيير ذلك النسق وتقويض مرتكزاته ، لأنه أصبح جسداً منسلخاً من ذاته ومنخرطاً في الحراك الاجتماعي ، ويتأثر بما يجري حوله ، ثم يتجه الى التأثير فيه ، فهو يأخذ ويعطي ، عبر حوار جدلي متنام يتصاعد كلما ارتقى الجسد في مراتب الوعي الانساني ، وتسامى على طبعه الايروسى الذاتي الذي يختزل وجوده في المتعة الزمنية المقيدة ، ويكون جزءاً من الثقافة السائدة التي تختزل وجود الجسد في المنظور الحسي الغرائزي، لذا تجعل حركته مدنسة ومقيدة ، لأنها تحيل الى الخطيئة والعار .

إن الجسدية البشرية تظل وضعا بايولوجياً ناقصاً ومشوهاً ، لذلك يجب على الانسان ان يسعى لتحرير ذاته من المخاطر المحتملة التي تهدد بقاءه الانساني ، وترجع هذه المخاطر الى عدم نضج جسديته واكتمالها ، لذا يتوجب على البشر انتاج عالم ذي معنى لأنفسهم من خلال اشباع بيئتهم بالشكل والمعنى ، حتى لا يظل الجسد وجوداً حسياً فارغاً مهدداً بالانمحاء والضمور والزوال .

(٣٦)

إن النص يوحي بالجسد المتعالي على واقعه البيولوجي ، لأنه يشعر بمحدودية الكيان المادي والحسي الناقص ، لذا يتوجب شحن الجسد بطاقة اجتماعية ايجابية مقوضة لواقعها ، وتعمل هذه الطاقة الايجابية على انتاج الملازمة الحيوية الكامنة بين بايولوجية الجسد واجتماعيته في الوقت ذاته ، وفي ضوء ذلك يظل الجسد بنية اجتماعية متغيرة ومتطورة من خلال حياة الانسان ومسيرته في الحياة، ولا بد من تمازج الشكل والمضمون لانتاج الذات الانسانية المتفردة التي تقارع الفناء ، وفي ضوء ذلك يتعالى الجسد على كينونته الحسية ليرتقي الى فضاءات اجتماعية وانسانية ترنو الى التطور والتغيير ومعالجة الواقع الانساني المتأزم ،

الذي يشكل عنفا مضاعفا ومسلطا على الجسد ، وهنا يتوق الجسد الى لحظة الانعتاق والخلاص من هذه الهيمنة المسلطة عليه ، والتحرر من آثارها السلبية التي تحفر بصماتها على سطحه الخارجي .

الخاتمة :

إن بلاغة الجسد تمثل علامة ثقافية بارزة في شعرية حسين مردان ، وتتمظهر هذه البلاغة بأنماط متباينة في نصوصه ، كما أنها شهدت تطورا لافتا على مستوى رحلته الشعرية ، فالجسد مثلا في دواوينه الأولى كان جسدا شبقيا وبدائيا وعنيفا ، ويتموضع في مركز النص وبؤثرته ، ولكننا نجده في دواوينه الأخرى أكثر تهذيبا وعقلانية حين خفت جمرته وتوقده ، ويبدو ان بلاغة الجسد في شعره قد تطورت من المرحلة البدائية – الشهبوانية العنيفة التي تكشف عن مكبوت سرطاني يلتمهم أحداقه_ كما يزعم _ الى شهبوانية متحضرة ومدججة نوعا ما قد تم ترويضها وتدجينها ، فتحول الجسد من منظومة برية متوحشة هائجة الى منظومة حضارية مدججة حاول السياق الثقافي تشذيبها وتدجينها ، ولكن الشاعر ظل صوتا شعريا ثائرا ومتمردا على السياق الثقافي الراسخ ويتنطع لمناهضته وزعزعة أسسه الفكرية الثابتة .

وقد تكشف بلاغة الجسد في شعره عن ازدواجية المعايير التي يعاين بها الشاعر المرأة ، وهي مهيمنة شعرية وثقافية واسعة في نتاجه الشعري ، وقد تسلت هذه الازدواجية من ثقافة شرقية ونسق ثقافي راسخ في الذاكرة الذكورية الشرقية ، وهيمنت بشكل واضح على سلوكياته وأفكاره ، وانصاع الشاعر لها انصياعا كاملا ، ولم يتجه الى تغييرها أو الانتفاضة عليها او الخروج من شرنقتها الثقافية التي كبلت خياله الشعري الجامح وأفقها الثقافي الهادر ، فصورة المرأة في ذهنه الشاعر كانت بنية متناقضة ومتباينة ، فهي الجرح والبلمس ، وهي الداء والدواء ، وهي الأمل واليأس ، وهي الموت والحياة ، وقد أفرز هذا الصراع الداخلي المتناقض أنماطا سلوكية متباينة ، وأنتج عالما متخيلا مضطربا ممتزجا بالعنف والتدمير ، وممتزجا بالقدرة المشبوبة على اذابة التناقضات واعادة انتاجها في مساحة نصية واحدة ، وعلى الرغم من مركزية صورة المرأة في شعره ، فإنها ظلت رؤية مضطربة ومشوشة ولم تكن حالة فنية متناغمة ومنسجمة ، وهي تنطلق من ذات متناقضة ومتشظية ومضطربة ، فاصطبغت بصبغتها وتلونت بلونها ، واكتسبت ذائقة فنية متباينة ، قد تكشف عن عمق الشروخ والفجوات والتناقضات التي تسكن أعماق الشاعر ، وهذه الأعماق القلقة والمتأزمة التي تسكنها التخيلات الجنسية الطفولية التي نهلت الحرمان القاسي من لحظة ولادتها .

إن الشاعر استطاع ان يتمثل الثقافة الذكورية الراسخة التي تختزل الجسد الانثوي بالمتعة ، ويغزل على منوال هذه الثقافة ، لأنها ثقافة تغازل وعيه المحروم وتلامس مخيلته الفالوسية الشرقية التي لا يقوى على الانفلات منها ويرضخ لهيمنتها الطاغية على تفكيره ، وهذه الازدواجية الثقافية تقطن ذاكرة الانسان الشرقي ولا تغادر مخيلته مهما ارتقى وعيه الثقافي والفكري ، وهي النسق المضمر الذي يتحكم بتفكيره وسلوكه ويوجهه نحو مسارات مرسومة سلفا ، وعلى الرغم من هذه الصورة السلبية عند الشاعر فأننا نجد صورا أخرى مغايرة استطاع الشاعر فيها تلغيم المسكوت عنه في الثقافة العربية ، والعزف على المكبوت المضمر في الذات العربية ، وكما استطاع أحيانا تحويل الجسد الأنثوي من بنية بايولوجية حسية ومادية الى نسق ثقافي مثير حاول ملامسة المحرم في الثقافة العربية واخراجه من الاضمار الى العلن ثم وضعه على منصة التشریح الثقافي ليتم تعرية

التابوات المجهضة وتشريحها واماطة اللثام عن النتوءات المضمرة والماكثة في الانساق الثقافية ، وقد تم ذلك عبر بلاغة الجسد التي تحولت فيما بعد الى خطاب مناهضة سلطة القمع الاجتماعي والثقافي ، وأصبح الجسد الأنثوي علامة ثقافية يتصدى لمواجهة الهيمنة الثقافية الراكزة ، وتسعى الى التحرر منها ، كما يسعى الى زعزعة التصورات الثقافية المتقولة في الثقافة العربية ، ومحاولة انتاج تصورات جريئة ومغايرة أحدثت ضجة اعلامية واسعة وتم محاكمة الشاعر بسببها .

واستطاع الشاعر تحويل الجسد الى علامة ثقافية يمكن تلمس معالمها المطروحة في النص ، فأغلب الأجساد التي ينتجها الشاعر وينتهك كينونتها هي أجساد اجتماعية مسحوقة وبأئسة ومقموعة ومهمشة ، ليعلن عن انتمائها الاجتماعي المستلب ، ليكشف هذا الانتهاك عن صرخة احتجاج مكتومة تضح أيننا داخلها مكبوتا يتفجر وجعا انسانيا في لحظة التوهج الجنسي المحموم ، وكأن الممارسة الجنسية تصبح بوحا انفعاليا نائرا ضد جميع الانساق الثقافية الراسخة التي تسحق الجسد الأنثوي وتحط من شأنه حين يتم اختزاله في جانب المتعة واللذة ، وتشطب جماله الانساني والفكري وتحصره في مسار ضيق تمهيدا لنفيه وطرده من دائرة الاهتمام ، وتتجه به الى أسلبة الوعي واضمحلال الارادة وتغييب الهوية ، وفي ضوء ذلك يمكن القول ان بلاغة الجسد ربما تتحول الى ثورة ثقافية مكتومة ضد كل أشكال الهيمنة الثقافية والاجتماعية والسياسية .

ولعل من أهم الاشكاليات النقدية المطروحة هي ، هل ينتج العزف على المكبوت الثقافي العربي شعرية ابداعية مغايرة ؟ وهل أنتجت النصوص الشعرية شكلا أدبيا مغايرا يتوازى مع تمرده الثقافي وثورته على الانساق المتكلسة ؟ وهل ان شعرية حسين مردان تشكل ظاهرة فنية أم انها تمثل ظاهرة ثقافية ؟ .

إن العزف على المكبوت الجنسي لا يمكن ان نعهده منجزا ابداعيا مالم يتجسد في أنساق فنية ابداعية مغايرة تخالف المؤلف وتنتج نسقا ابداعيا مغايرا ، وتنجز اسلوبها المائز ، وتحقق عنصر الانهيار والدهشة والغرابة وكسر أفق انتظار القاريء ، لذا اختل التوازن الفني في نصوص الشاعر بين الشكل الفني الثابت والمتقوبل والمضمون المتجدد والمتغير ، فازدادت الفجوة الفاصلة بين شكلانية النص ومضمونه ، لذا يمكن ان نطلق على شعريته بشعرية المضمون ، لذلك يقترح الباحث ان تعين نصوص حسين مردان معاينة ثقافية تتناغم وتنسجم مع الانساق الثقافية الكامنة فيها ، وربما تكون هذه المحاولة ماهي إلا محاولة مختزلة لمعاينة الانساق الثقافية في شعره ، ومقدمة للدخول الى فضائها الواسع الممتد والمعرب بالمزيد من الثيمات الثقافية الفاعلة التي لا يمكن الاحاطة بها وسبر أغوارها العميقة التي قد تكشف عنها النصوص الابداعية ، وسوف يظل الفضاء الثقافي في شعرية حسين مردان مترعا بالعديد من الاشارات النصية المضمرة .

الهوامش

- ١- لغز العقل : مشكلة العقل والجسد في الفكر المعاصر ، سرجيو مورافيا ، ترجمة : عدنان حسن ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ٢٠٠٢ ، ص : ١٨ .
- ٢- فلسفة الجسد ، ميشيلا مارزانو ، ترجمة : نبيل ابو صعب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠١١ ، ص : ١٥ ،

- ٣- حفريات في الجسد المقموع: مقارنة سوسولوجية ثقافية، مازن مرسول، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص: ٣٥.
- ٤- فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، ص: ١٧.
- ٥- نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، تحرير: د. احمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص: ٢٠٠، ٢٠١.
- ٦- تطور مفهوم الجسد: من التأمل الفلسفي الى التصور العلمي، د. يوسف تيبس، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٤، المجلد ٣٧، ابريل - يونيو، ص: ٣٧.
- ٧- حفريات في الجسد المقموع، مازن مرسول، ص: ٤٣.
- ٨- فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، ص: ٥٤.
- ٩- فلسفة الجسد، سمية بيدوح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص: ٨٥.
- ١٠- نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، تحرير: احمد عبد الحليم عطية، ص: ٢٢٠.
- ١١- فلسفة الجسد، سمية بيدوح، ص: ٩٠، ٩١.
- ١٢- المصدر نفسه، ص: ٢٧.
- ١٣- فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، ص: ٥٩.
- ١٤- الفلسفة في الجسد، الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي، جورج لاكوف، مارك جونسون، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص: ٩.
- ١٥- فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، ص: ٦١، ٦٢.
- ١٦- المصدر نفسه، ص: ٩٣، ٩٤.
- ١٧- حفريات في الجسد المقموع، مازن مرسول، ص: ١٧٣.
- ١٨- سوسولوجيا الجسد، دافيد لو بروتون، ترجمة: عياد ابلال، ادريس المحمدي، دار روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص: ٥٦.
- ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر حسين مردان، الجزء الأول، جمع: د. عادل كتاب نصيف العزاوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٩، ص: ٢٠.
- ٢٠- فلسفة الجسد، سمية بيدوح، ص: ٢٠.
- ٢١- اساتذة اليأس، النزعة العدمية في الأدب الاوربي، نانسي هيوستن، ترجمة: وليد السويركي، مراجعة: د. احمد خريس، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، (كلمة)، الامارات العربية المتحدة، الطبعة الاولى، ٢٠١٢، ص: ١٩.
- ٢٢- الأعمال الشعرية الكاملة، ص: ١٥، ١٦ ز
- ٢٣- فلسفة الجسد، ميشيلا مارزانو، ص: ١١.
- ٢٤- سوسولوجيا الجسد، دافيد لو بروتون، ص: ١٠، ١٥.
- ٢٥- الأعمال الشعرية الكاملة، ص: ٦٦، وما بعدها.
- ٢٦- سوسولوجيا الجسد، دافيد لو بروتون، ص: ١٩.
- ٢٧- إرادة المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة: مطاع صفدي وجورج ابي صالح، مركز الانماء القومي، بيروت، ١٩٩٠، ص: ٢٨.
- ٢٨- الأزهار تورق داخل الصاعقة، حسين مردان، وزارة الثقافة والاعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٢، ص: ١٥٦.
- ٢٩- حفريات في الجسد المقموع، مازن مرسول، ص: ٣٧.
- ٣٠- الأعمال الشعرية الكاملة، ص: ٤٤، ٤٥.

- ٣١- سوسيولوجيا الجسد ، دافيد لوبروتون ، ص : ٦٤ .
- ٣٢- الأعمال الشعرية الكاملة ، ص : ٥٥ ، ٥٦ .
- ٣٣- حفريات في الجسد المقموع ، مازن مرسل ، ص : ٨١ .
- ٣٤- الأعمال الشعرية الكاملة ، ص : ٢٨ ، ٢٩ .
- ٣٥- المصدر نفسه ، ص : ١٣٦ وما بعدها .
- ٣٦- الجسد والنظرية الاجتماعية ، كرس شلنج ، ترجمة : منى البحر ، نجيب الحساوي ، دار العين للنشر ، ابو ظبي ، الامارات العربية المتحدة ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٩ ، ص : ١٣٩ .

المصادر

- ١- الأجساد الثقافية ، الاثنوغرافيا والنظرية ، تحرير : هيلين توماس ، جميلة أحمد ، ترجمة : اسامة الغزولي ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٢ .
- ٢- إرادة المعرفة ، ميشيل فوكو ، ترجمة : مطاع صفدي وجورج ابي صالح ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- ٣- الأزهار تورق داخل الصاعقة ، حسين مردان ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٧٢ .
- ٤- اساتذة اليأس ، النزعة العدمية في الأدب الأوربي ، نانسي هيوستن ، ترجمة : وليد السويركي ، مراجعة : د . احمد خريس ، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٢ .
- ٥- الأعمال الشعرية الكاملة حسين مردان ، الجزء الأول ، جمع : د. عادل كتاب نصيف العزاوي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٩ .
- ٦- الجسد والنظرية الاجتماعية ، كرس شلنج ، ترجمة : منى البحر ، نجيب الحساوي ، دار العين للنشر ، ابو ظبي ، الامارات العربية المتحدة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩ .
- ٧- الجسد والوجود والعتبة المقدسة ، معاذ بني عامر ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٥ .
- ٨- حفريات في الجسد المقموع ، مقارنة سوسيولوجية ثقافية ، مازن مرسل ، منشورات ضفاف ، بيروت ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، دار الأمان ، الرباط ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٥ .
- ٩- سوسيولوجيا الجسد ، دافيد لو بروتون ، ترجمة : عياد ابلال ، ادريس المحمدي ، دار روافد للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٤ .
- ١٠- فلسفة الجسد ، ميشيلا مارزانو ، ترجمة : نبيل ابو صعب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠١١ .
- ١١- فلسفة الجسد ، سمية بيدوح ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، تونس ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩ .
- ١٢- الفلسفة في الجسد ، الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي ، جورج لاكوف ، مارك جونسون ، ترجمة : عبد المجيد جحفة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٦ .
- ١٣- لغز العقل ، ومشكلة العقل والجسد في الفكر المعاصر ، سرجيو مورافيا ، ترجمة : عدنان حسن ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ٢٠٠٢ .
- ١٤- نيتشه وجذور ما بعد الحداثة ، تحرير : احمد عبد الحليم عطية ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٢ .

Research Sources:

- 1- Cultural Bodies, Ethnography and Theory, edited by: Helen Thomas, Jamila Ahmed, translated by: Osama Al-Ghazouli, National Center for Translation, Cairo, first edition, 2012.

-
- 2- The Will of Knowledge, Michel Foucault, translated by: Mutaaf Safadi and George Abi Saleh, National Development Center, Beirut, 1990.
 - 3- Flowers are leafed inside the thunderbolt, Hussein Mardan, Ministry of Culture and Information, Baghdad, 1972.
 - 4 - professors of despair, nihilism in European literature, Nancy Houston, translated by: Walid Al-Sawirki, review: d. Ahmed Khreis, Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage (Kalima), First Edition, 2012.
 - 5- The complete poetic works of Hussein Mardan, Part I, compiled by: Dr. Adel Kitab Nassif Al-Azzawi, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 2009.
 - 6- The Body and Social Theory, Chris Schling, translated by: Mona Al-Bahar, Najib Al-Hasadi, Dar Al-Ain Publishing, Abu Dhabi, United Arab Emirates, first edition, 2009.
 - 7- The Body, Existence and the Holy Shrine, Moaz Bani Amer, Arab Cultural Center, Beirut, Casablanca, first edition, 2015.
 - 8- Excavations in the repressed body, a sociological approach
 - ٩- Sociology of the Body, David Le Proton, translated by: Ayad Abelal, Idris Al-Mohammadi, Dar Rawafed for Publishing and Distribution, Cairo, first edition, 2014.
 - 10- Philosophy of the Body, Michela Marzano, translated by: Nabil Abu Saab, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, first edition, 2011.
 - 11- Philosophy of the Body, Somaya Badouh, Dar Al-Tanweer for Printing and Publishing, Beirut, Tunisia, first edition, 2009.
 - 12- Philosophy in the body, the incarnate mind and its challenge to Western thought, George Laykov, Mark Johnson, translated by: Abdul Majeed Jahfa, Dar Al-Kitab Al-Jadeed United, Libya, first edition, 2016.
 - 13- The Mystery of the Mind, and the Problem of Mind and Body in Contemporary Thought, Sergio Moravia, translated by: Adnan Hassan, Publications of the Syrian Ministry of Culture, Damascus, 2002.
 - 14- Nietzsche and the roots of postmodernism, edited by: Ahmed Abdel Halim Attia, Dar Al-Farabi, Beirut, first edition, 2012.